التشيُّعُ في الأندلس إلى نهاية ملوك الطوائف

Shi'ism in Al-Andalus Until the Reign of Ṭawā'if (Taifas)

محمود علي مكي

Mahmūd ʻAlī Makkī



صَحِيفَةُ المعهَدِ المصرِيِّ للدراسات الإسلامية في مدريد

المجلد الثاني، ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م العدد ١ ـ ٢، ص ٩٣ ـ ص ١٤٩

Journal of Egyptian Institute for Islamic Studies,
Vol. 2, No 1-2, 1954, pp. 93-149.

التشيُّعُ في الأندلس

١ ــ منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية

تمهيد

نشأة الحزب الشيعي في المشرق

ترجع نشأة الحزب الشيعي إلى وقت مبكر في تاريخ الإسلام، فقد بدأت طلائعه منذ توفى النبي (صلعم) سنة ١٢ هـ. (٦٣٢) وكان من رأي بعض الصحابة أن أولى الناس بالخلافة هم أهل بيت النبي أي بنو هاشم، وأولى هؤلاء ابن عمه علي بن أبي طالب. وهكذا نستطيع أن نقول إن الشيعة كانوا أول حزب سياسي ديني في الإسلام. ولكن اجتماع السقيفة المشهور انتهى باختيار أبي بكر واضطر عليّ أن يبايع له، ثم عهد أبو بكر لعمر بالخلافة تعييناً منه وأوصى عمر إلى ستة بينهم عليّ، ولكن انتهى الأمر باختيار عثمان بن عفان، وقد كان بين بني أمية وبني هاشم تنافس قديم على الرياسة منذ الجاهلية. فلما ولى عثمان اعتبر بنو أمية الدولة دولتهم ومال هو إليهم ميلا ألب عليه طائفة من المسلمين وانتهى الأمر بقتله. وقد اتهم الأمويون علياً بالمشاركة في دمه وهكذا شجر النزاع بين الحزب الأموي والحزب العلوي ثم انقلب هذا النزاع إلى حرب مسلحة كان يمثل الحزب الأموي فيها معاوية بن أبي سفيان والي الشام منذ أيام عمر وقد نشبت بين الفريقين حرب طويلة انتهت بأن قبل علي ومعاوية التحكيم. وجاءت خدعة التحكيم بنتيجة في صالح معاوية فأسبغت على مطامعه بعض الشرعية، كما أنها تسببت في خلق حزب ثالث انشق من الحزب

الشيعي هو حزب الخوارج. وقد استمر النزاع رغم ذلك بين علي ومعاوية حتى قتل علي سنة ٤٠ (٦٦٠) بيد أحد الخوارج. وهكذا سارت الأمور شيئاً فشيئاً في مصلحة الأمير الأموي الذي أعلن نفسه خليفة في السنة التالية، ثم زاد أمرَه قوة تنازلُ الحسن بن علي له عن الخلافة حرصاً على الجماعة واجتناباً للفرقة. وما إن استوثق له الأمر حتى ولى عهده ابنه يزيد من بعده وبايع له وانتقلت الخلافة إلى ملك وراثي مستقر في البيت الأموي.

ولكن الأحزاب المعارضة لم تسلم بالأمر في سهولة، وكان على الأمويين أن يخمدوا ثوراتهم المتوالية، وقد استمر الخوارج طوال الحكم الأموي يقاتلون بحماسة وإخلاص دفاعاً عن مبدأ الجمهورية الإسلامية. أما الشيعة فقد خرجوا مراراً، وكان من أهم حركتهم الثورية خروج الحسين بن علي في أيام يزيد بن معاوية، وانتهت ثورته بقتله وقتل من معه في مذبحة «كربلاء» سنة ٦١ (٦٨٠) التي كان لها أثر عميق في الحياة الفكرية والأدبية للشيعة. كما أوقع يزيد بعد ذلك بأهل المدينة من الأنصار في موقعة «الحرّة» سنة ٦٣/ ٦٨٢ وكان الأنصار يعطفون على قضية الشيعة. ثم عقب ذلك ثورة شديدة قام بها عبد الله بن الزبير ومعه الساخطون من المضرية، ولكن جيش ابن الزبير هزم هزيمة ساحقة على يد مروان بن الحكم الذي استقرت الخلافة من بعده في ولده.

قوة الحزب الأموي في الأندلس منذ الفتح الإسلامي

وعلى الرغم من انشغال الأمويين في هذه الحروب الداخلية فإن الإمبراطورية الإسلامية شهدت أعظم اتساع لها في أيامهم، وكانت جيوشهم في هذه الأثناء تتقدم شرقاً وغرباً في نجاح مطرد، وفي سنة ٩٢ استطاعوا أن يضيفوا إلى مملكتهم الواسعة شبه جزيرة إيبريا ويوطدوا فيها أقدامهم. وقد أبدى الأمويين نحو إسبانيا اهتماماً كبيراً ربما كان مردّه إلى غناها وكثرة ما غنموه منها، أو

تلك النبوءة التي كان مسلمة بن عبد الملك يؤمن بها وهي أن الأندلس ستكون مستقر دولتهم الثانية[١].. على أية حال استقر في الأندلس منذ فتحها عدد كبير من موالى بني أمية وجنودهم المخلصين[٢]، كما أن معظم من اشتراك في الفتح من العرب كانوا من الشاميين الذين قامت على أكتافهم الدولة الأموية. وقد ظهر صدى الدعوة الأموية فيما كان يحدث حينذاك من حروب أهلية. وقد كان جنود بلج بن بشر الشاميون يذكرون والي الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى بأنه إنما أفلت من سيوفهم يوم الحرة (وكان ابن قطن قد اشترك في هذه الموقعة التي أشرنا إليها في صف الأنصار وضد جيش يزيد بن معاوية) وكان جزاؤه على ذلك أن صلبوه ومثلوا به سنة ١٢٣ (٧٤١)[٣]. ويجب أن نذكر كذلك أنه كان من بين جنود بلج هؤلاء عدد اشتراك في الحروب التي اشتعلت بين الأمويين وخصومهم الشيعة في العراق. ومن أهم هؤلاء شمر بن ذى الجوشن الكلابي الذي قتل الحسين بن علي بيده في كربلاء ثم هرب من الكوفة إلى الشام خوفاً من انتقام المختار بن أبي عبيد الثقفي، ودخل الأندلس مع بلج، وكان حفيده الصميل بن حاتم من أكبر القواد في الأندلس ووزيراً لأميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى[٣].

سقوط الخلافة الأموية في المشرق واستقلال عبد الرحمن الداخل بالأندلس

وفي هذا الوقت كانت ضربات الأحزاب المعارضة من شيعة وخوارج تتزايد على بني أمية حتى انتهت بسقوط دولتهم سنة ١٣٢ (٧٤٩) وظن الشيعة العلويون أن الدولة أصبحت لهم، ولكن خاب ظنهم حين قبض أبناء عمومتهم

---

(١) أخبار مجموعة ٥٢

(٢) يقدر المقرى موالى المروانية في الأندلس قبل قدوم عبد الرحمن الداخل بعدد يتراوح بين ٤٠٠ و٥٠٠ ــ نفح ٤/ ٢٨

(٣) المقرى: نفح الطيب ٤/ ٢٠

من بني العباس على ناصية الأمر وجعلوا الخلافة في بيتهم، وعاد الشيعة مرة أخرى إلى نشاطهم كحزب معارض. أما العباسيون فإنهم بدافع الانتقام من بني أمية نكلوا بمن بقى تنكيلا شديداً حتى اضطروهم أن يتخفوا أو يهربوا إلى أقاصي الأرض. وكان ممن هرب من مطاردة العباسيين عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي هرب إلى الأندلس مدفوعاً بعاملين: الأول بعدها عن مركز الخلافة العباسية في المشرق والثاني كثرة موالي الأمويين بها، واستطاع أن يؤسس في قرطبة إمارة أموية مستقلة، وقد حفز نجاحه في ذلك كثيراً من الأمويين على أن يهاجروا إلى الأندلس، وكان عبد الرحمن يعهد إليهم بأرقى المناصب، وهكذا رسخت أقدام الأمويين في الأندلس.

مبادئ التشيع الأندلسى

مراكز الثورات الشيعية الأولى

وواضح بعد هذا أن الأندلس منذ فتحت كانت أموية النزعة ولهذا فقد بدأ التشيع فيها ضعيفاً[٤]. وقد استغرق عبد الرحمن طول مدة إمارته (١٣٨ ــ ١٧٢ هـ. = ٧٥٦ ــ ٧٨٨ م.) في إخماد الثورات التي قامت ضده وعني بشكل خاص بأن يضرب بيد من حديد على كل دعوة هاشمية، عباسية كانت أو علوية. وقد وجد في الأندلس ــ رغم اتجاهها الأموي القوي ــ مركزان للتشيع كانا مصدراً للثورات:

الأول: بين البيوت العربية التي دخلت الأندلس، وكانت تدين بنصرة آل علي من قبل فظلت فيها هذه النزعة متوارثة.

والثاني: بين القبائل البربرية.

(٤) ينحصر ذكر علي بن أبي طالب في هذه الفترة في أن بعض من دخل بلاد الأندلس من التابعين كان من تلامذته وأنصاره مثل حنش الصنعاني الذي ينسب إليه فضل بناء جامعي سرقسطة وإلبيرة وكان ممن حارب في صف علي ثم ابن الزبير ضد الأمويين ولكنه لم يعرف في الأندلس بأي نزعة علوية ــ المقرى: نفح ٤/ ٥، ٦

بيـــن العـــرب

وأول الثورات العربية التي كان لها صلة بالعلويين هي ثورة عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر، وجده عمار كان من أشد أصحاب علي إخلاصاً له وتفانياً في الدفاع عنه، وقد قتل عمار في صفين بأيدي الأمويين، ويجب ألا ننسى مدى الصلة الوثيقة بين المنازع الحزبية والعصبية القبلية المتوارثة في هذه الفترة من حياة المسلمين، فقد ظل عبد الله بن سعيد هذا معادياً للحزب الأموي في الأندلس، ويشير ابن حيان إلى أن هذه العداوة قد استغلها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس عند قدوم عبد الرحمن الداخل، فعهد إلى الياسريّ بقتاله لما كان يعرفه من الخصومة والثأر بين عائلتيهما، ولكن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح[١].

والثورة الثانية هي التي قام بها الحسين بن يحيى بن سعد بن عبادة الخزرجى، فقد ثار في سنة ١٦٥ (٧٨٢) بسرقسطة وخلع طاعة عبد الرحمن، وشايعه سليمان بن يقطان الأعرابي[٢]، ومما يذكر أن جد هــذا الثائر سعيد بن سعد كان من شيعة علي، وقد ولى له اليمن وولى أخوه قيس بن سعد مصر لعلي كذلك. ويقول ابن حزم إنه كان من سلالة هذه الأسرة الشاعر أبو بكر عبادة بن ماء السماء الذي أصبح شاعر الحموديين والناطق بلسان الشيعة في أيام ملوك الطوائف[٣].

بين البـــربـــر

والمركز الثاني للتشيع ــ وهو الأهم ــ هو القبائل البربرية، وذلك أن التشيع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعرب وللعصبية العربية، وكما أن التشيع

---

(١) المقرى: نفح ٣/ ٩٦، ٤/ ٦١
(٢) أخبار مجموعة ١١٢ ــ ١١٤ وابن عذارى: بيان ٢/ ٨٤
(٣) ابن بسام: ذخيرة القسم الأول ــ ٢/ ١

في المشرق قام عليه الموالى من الفرس فكذلك في المغرب قام عليه الموالى من البربر، ولهذا فقد كانت بلاد شمال افريقية تربة خصبة للدعوات الشيعية، وقد تردد صدى التشيع في الأندلس لأول مرة بين صفوف البربر الذين اشتركوا مع العرب في الفتح، واستأثر دونهم العرب بمغانم الانتصار وثمراته. ولهذا كان علينا أن نتتبع البيئات التي استقر فيها البربر في الأندلس؛ ونستطيع أن نقول بوجه عام إن البربر استوطنوا على الأغلب المناطق الجبلية والهضاب المرتفعة لا سيما الممتدة في وسط شبه الجزيرة، وهي المنطقة التي كانت تعرف «بالجوف» وكذلك المناطق الجبلية في جنوب شرق الأندلس في كورة البيرة[١]، وهذا هو ما ترك لهم السادة العرب بعد أن احتلوا أهم الوديان الخصبة والسهول، وقد كانت المناطق البربرية ميداناً لجميع الثورات الشيعية التي عرفتها الأندلس كما سنرى.

ثورة شقيا بن عبد الواحد

وأول الثورات البربرية الشيعية هي التي قام بها شقيا بن عبد الواحد المكناسى في منطقة شنتبرية «Santaver»، وكانت أخطر الثورات التي هددت عبد الرحمن الداخل وأطولها إذ استمرت من ١٥١ إلى ١٦٠ (٧٦٨ ــ ٧٧٧)، وقد امتدت ما بين ماردة «Mérida» وقورية «Coria» غرباً إلى ثغور وادي الحجارة «Guadalajara» وكونكة «Cuenca» شرقاً، أي في جميع الهضبة التي تتوسط شبه الجزيرة[٢]. وكان هذا الثائر معلم صبيان أصله من لجدانية (؟) «Labidenia» (وادي الحجارة)[٣]، وكانت أمه تسمى فاطمة، فادعى أنه فاطمي وتسمى بعبد الله بن محمد[٤]. وقد سير عبد الرحمن الداخل جيوشاً كثيرة لمحاربته، منها جيش كان على قيادته عثمان بن مروان العثماني، فانتصر

---

(١) Lévi-Provençal: *Histoire*… I, 85-88

(٢) ابن عذارى: بيان ٢/ ٨٠ ــ ٨١

(٣) أخبار مجموعة: فهرس الأعلام الجغرافية ص ٢٥٧ من الترجمة الأسبانية

(٤) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٣٤

عليه الفاطمي وقتله[١]، وكان يستخدم أسلوباً حربياً مألوفاً لدى البربر، وهو تجنب المعارك الحاسمة في السهول والفرار إلى قمم الجبال إذا أحس بالخطر. ولم يتمكن عبد الرحمن من هذا الثائر إلا بمؤامرة دبرها بعض أصحابه له فاغتالوه سنة ١٦٠ (٧٧٦ ــ ٧٧٧)[٢]. ولعل هذه الثورة هي أول محاولة لإقامة دولة شيعية في الغرب الإسلامي، إذ أنها سبقت تكوين دولة الأدارسة العلوية بنحو عشرين سنة. وقد كشفت هذه التجربة عما يمكن للدعوات الشيعية أن تصيبه من النجاح في أوساط القبائل البربرية. ولسنا نعلم شيئاً مفصلا عن تعاليم هذا الثائر، إلا أن ابن عذارى يسميه «الداعى الفاطمى» وربما دل هذا على أنه كان يدعو لغيره بالخلافة، وعلى أية حال فقد كان لثورته طابع روحي مذهبي، ويذكر صاحب «أخبار مجموعة» أن القائد الأموي وجيهاً الغساني ــ وهو الذي وجهه عبد الرحمن لمحاربته ــ اقتنع بدعوته وآمن بها وصار من أكبر أعوانه، وظل مخلصاً له حتى بعد قتله، إذ هرب إلى جبال إلبيرة وما زال يقاتل جيوش عبد الرحمن بشجاعة واستبسال حتى قتل[٣].

ثورة شرق الأندلس

وفي نهاية القرن الثاني الهجري تجد الدعوات الشيعية كثيراً من الرواج في العالم الإسلامي كله، لا سيما بعد أن أوقع العباسيون بالثوار العلويين الذين تزعمهم الحسين بن علي بن الحسن في موقعة فخ سنة ١٦٩ (٧٨٦) تلك الموقعة التي اعتبرها الشيعة كربلاء أخرى، وكان لها أثر بعيد في مصير هذا الحزب، فقد أفلت من هذه الوقعة شخصان قدر لهما النجاح في تكوين دولتين شيعيتين: وهما يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي استولى على الديلم في شمال إيران وأخوه

---

(١) ابن حزم: جمهرة ٧٨

(٢) راجع: Lévi-Provençal: *Histoire*… I, 112-224

(٣) أخبار مجموعة ١١١

إدريس الذي استطاع أن يقيم دولة الأدارسة في المغرب الأقصى سنة ١٧٠. وقد كان لهذا الاضطراب السياسي والفكري الذي عم العالم الإسلامي صداه في الأندلس وبين البربر الذين أثبتوا حاجتهم إلى زعيم روحي جديد. وقد تمثل هذا الزعيم في شخصية معلم آخر لم تحتفظ لنا المراجع باسمه قام في شرق الأندلس[١] سنة ٢٣٧ (٨٥١) وادعى النبوة، وكان يتأول القرآن على غير تأويله وكان من شرائعه النهي عن قص الشعر وتقليم الأظفار. وقد قبض على هذا المتنبئ وحوكم بتهمة الزندقة وعرضت عليه التوبة فلما أبى صلب. وهذه النزعة إلى تأويل القرآن تدل على أنه كان متأثراً إلى حد ما بالدعايات الباطنية التي سبقت تكوين الدولة الفاطمية، وقد أشار أسين بلاثيوس «Asín Palacios» إلى الشبه بين تعاليمه في النهي عن قص الشعر والأظافر وبين التعاليم الفيثاغورية[٢]، وقد تأثر الإسماعيلية فعلا بالنظم به تأثراً شديداً[٣].

على أن قتل هذا المتنبئ لم يقض على الحركات الشيعية في الأندلس، إذ أن الدعايات الفاطمية كانت قد بلغت في هذا الوقت ذروة نشاطها في المشرق والمغرب: أما في الشرق فكان الشيعة الإمامية في فارس والعراق ينتظرون رجعة إمامه الثاني عشر محمد المهدي الذي اختفى سنة ٢٦٥ في سرداب، بينما كان الشيعة الإسماعيلية أو السبعية يبشرون بظهور إمامه ويجوسون خلال البلاد الإسلامية باحثين عن البيئة الملائمة لدعوتهم، وقد تبينوا أن جماعات البربر في شمال إفريقية أصلح ما تكون لها، وصادف ذلك تفكك الوحدة السياسية والعنصرية للإمارة الأموية في عهد الأمير عبد الله. فاستغلت الدعوة الفاطمية هذه الفرصة،

---

(١) هكذا يقول ابن عذارى بدون أن يأتي بتحديد واضح (بيان ٢/ ١٣٤) أما ابن سعيد فيجعل ثورته في الثغر الأعلى Aragón (مغرب س ٥٠) ولعل المعقول أن تكون هذه الثورة في المناطق الواقعة بين السواحل الشرقية وضفاف نهر الإبرو الجنوبية أي تقريباً في نفس المنطقة التي ثار فيها شقياً من قبل

(٢) راجع ... Asín Palacios *Ibn Masarra*

(٣) راجع كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية ص ١٧

وحاولت الاستفادة من الثورات في الأندلس، كما أرادت هذه الثورات أن تستند إلى حجة دينية ولم تر خيراً من الدعوة العلوية.

وكانت أخطر هذه الثورات هي التي قام بها عمر بن حفصون في جنوب الأندلس، وقد امتدت سنين طويلة، واستغرقت إمارة عبد الله بن محمد (٢٧٥ ـــ ٣٠٠) وجزءاً من إمارة عبد الرحمن الناصر. وقد استغف عمر بن حفصون الدعوات العلوية في شمال إفريقية، ويذكر ابن حظم أنه خطب للقاسم ابن إبراهيم الإدريسي صاحب البصرة[١]. أما ابن الخطيب[٢] فيذكر أنه خاطب الفاطميين في إفريقية فوجه إليه هــؤلاء داعيين ممن يعتقد بمذهبهم وقدم هذان، فحضا عمر بن حفصون على التمسك بطاعة الفاطميين وإقامة دعوتهم بالأندلس وقد أقام هذان الداعيان لدى ابن حفصون واستعان هذا بهما في حروبه ضد بني أمية ثم وجه بهما مرسلا معهما هدية إلى الخليفة الفاطمي. ولكن ابن حفصون على أية حال لم يكن مخلصاً للدعوة العلوية، وإنما كان يتخذها مطية لأغراضه، يكايد بها الأمويين في قرطبة متى شاء.

ثورة أحمد بن معاوية القط

على أن الحركة التي تأثرت بالدعوة الفاطمية تأثراً عميقاً هي ثورة أحمد بن معاوية بن هشام الأموي المعروف بالقط الثائر سنة ٢٨٨ (٩٠١)[٣]. ومرة أخرى نرى هذه الدعوة تجد آذاناً صاغية بين القبائل البربرية في نفس المنطقة التي انتشرت فيها الدعوات الشيعية من قبل، أي منطقة «الجوف» على طول الثغر الأدنى والحدود بين المملكة الإسلامية والمملكة المسيحية: ما بين ماردة ووادي الحجارة، ولكن هذه الثورة التي وجهت بعد ذلك للجهاد ضد المسيحيين

---

(١) جمهرة أنساب العرب ٤٤

(٢) أعمال الأعلام: ٣٦

(٣) راجع Lévi-Provençal: *Histoire*… I, 338-385 وما أورده من مراجع

في إسبانيا سرعان ما تحطمت على أسوار سمورة «Zamora» على يد ألفونسو الثالث ملك أشتوريش «Asturias». وعلى الرغم من أن قائد الثورة كان أحد أفراد البيت الأموي إلا أن اللون الفاطمي كان واضحاً فيها كل الوضوح كما سنبين:

١ ــ فأمامنا أولا تسميته «بالمهدي»، ويضيف ابن حيان أنه كان يسمى أيضاً «فائز الدين وعاصم المسلمين»[١] وهي ألقاب لم نسمعها قبل في الأندلس، وإن كانت في المشرق شائعة بين فرق الشيعة على الخصوص. ويقصد بالمهدى عندهم الإمام المنتظر الذي يملأ الدنيا عدلاً كما مُلئت جوراً[٢] وهذا هو نفس اللقب الذي اتخذه عبد الله بن الحسين الفاطمي أول أئمة دور الظهور في شمال إفريقية، وذلك بعد ابن القط بثمانية أعوام سنة ٢٩٦ (٩٠٩). وينبغي أن نسجل هنا أن «مهدي» هذه الثورة كان يشبه إلى حد بعيد «مهدى» الشيعة الإسماعيلية أي إنه إنسان يجري عليه ما يجري على البشر من حياة أو موت، وهذا بخلاف الشيعة الاثنا عشرية الذين يعتقدون أنه لم يمت، بل هو حي يرزق اختفى في سرداب وأنه يظل كذلك حتى يظهر مرة أخرى حين تستدعي الأحوال ظهوره[٣].

٢ ــ ثم هناك الاهتمام الكبير بأن يكون لهذا الامام «داعٍ» ذو شخصية قوية ينظم الأمر ويجمع له الأنصار، وكما كان داعي الإسماعيلية في المغرب أبا عبد الله الشيعي كان داعي المهدي الأندلسي أبا على السراج الذي تقلد له الأمر ونشر الدعوة معتمداً على نقباء بثهم في صفوف القبائل البربرية كما كان الشيعي يعتمد كذلك على طائفة كبيرة من الدعاة الذين كانوا يسمون «النقباء» أيضاً. وقد صور ابن حيان لنا مدى ما كان يتمتع به هذا الداعي من احترام بين

---

(١) ابن حيان: المقتبس ١٣٣
(٢) راجع ما كتبه أحمد أمين عن عقيدة المهدية عند الشيعة: ضحى الإسلام ٣/ ٢٢٦ ــ ٢٣٦
(٣) كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية ١٣

أنصاره الذين كادوا يقدسونه. وتبدو لنا فكرة الداعي وطبقات النقباء بعده منقولة عن نظم الإسماعيلية التي جعلت لـ «داعي الدعاة» مركزاً كبيراً يلي رتبة الإمام واهتمت بإحكام طبقات الدعاة اهتماماً لم تعرفه حركة سرية من قبل[١].

٣ ــ وكان الاعتماد على الكرامات وإظهار الإحاطة بالعلوم من الأشياء التي حاول المهدي الجديد أن يؤثر بها على أنصاره من البربر، ويذكر أنه كان يتكهن لهم ويصطنع حيلا من الشعوذة يوهمهم أنها كرامات له. وكان هذا من الوسائل التي اصطنعها الداعي الإسماعيلي لجذب الأنصار إليه أول قيامه بالمغرب[٢].

ولعل هذه الثورة التي أشرنا إليها هي آخر المحاولات المسلحة لإقامة دولة على أسس شيعية في الأندلس. وقد انقطعت هذه الثورات بطبيعة تغير الموقف السياسي الداخلي بعد ذلك. ونعني بهذا عودة الخلافة الأموية إلى السيطرة القوية على الأندلس منذ أيام عبد الرحمن الناصر، فلم يكن هناك مجال يتسع لثورات من هذا القبيل إلى انتهاء دولة بني مروان وانقراضها فظهرت على مسرح السياسة من جديد الدعوة العلوية الحمودية وأقامت دولة لها كيان. على أن هذا لم يمنع تسرب بعض الثقافة الشيعية إلى الأندلس في أيام الخلافة عن طريق احتكاكها المتواصل بالشيعة كما سنبين.

٢ ــ نقل الثقافة الشيعية إلى الأندلس

وقد دخل التشيع الأندلس عن طريقين:

أولهما: الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق وأخذوا بقليل أو كثير من الثقافة الشيعية لا سيما في العراق أو مصر أو المغرب.

---

(١) كامل حسين: نفس المرجع ٢٠

(٢) ابن عذارى: بيان ١/ ٢٢١ وراجع ما كتبه ابن حزم عن استخدام الفاطميين لهذه الوسائل في الفصل ٥/ ٨

وثانيهما: بعض المشارقة الذين باشروا نشاطاً دعائياً في الأندلس أو قاموا بدور التجسس لمصلحة مواليهم الشيعة.

رحلة الأندلسيين للمشرق وأثرها في ذلك

ويبدو أن أول من نقل شيئاً من الثقافة الشيعية إلى الأندلس هو محمد بن عيسى القرطبي المعروف بالأعشى (ت ٢٢١)(١)، وقد رحل في سنة ١٧٩ فذهب إلى العراق مخالفاً بذلك زملاءه الأندلسيين الذين كانوا في ذلك الوقت يترددون على المدينة للتفقة على مالك بن أنس وتلاميذه. وقد كانت نتيجة دراسته في العراق أن نقل إلى الأندلس بعض كتب وكيع بن الجراح الذي كان من أكبر المحدثين الشيعيين، وله كتب في الدفاع عن مبادئ الشيعة الزيدية(٢). وقد عرض عليه القضاء في الأندلس فرفض وكان يذكر فضل على بن أبي طالب ويتخذه قدوته في حياته(٣).

وممن رحل إلى العراق بعد ذلك عباس بن ناصح الثقفي الشاعر الذي أوفده عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٠١ في التماس الكتب القديمة(٤)، وقد كان رفيقاً في رحلته وحياته الدراسية في المشرق ليونس بن إلياس البرغواطى الذي طلب علم النجوم والكهانة والجدل، ثم عاد إلى بلاده ليحيى الديانة البرغواطية وهي ديانة تستمد أكثر أصولها من التشيع(٥).

على أن أمثال هؤلاء لم يجاهروا بنزعة شيعية صريحة وإن نقلوا بعض

---

(١) ابن الفرضى: ت ١١٠٠

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ٢/ ٢٦

(٣) الخشنى: كتاب القضاة بقرطبة ١٠، ١١

(٤) ابن سعيد: المغرب ٤٥ ويقصد بالكتب القديمة الكتب التي تتناول العلوم المختلفة من طب ونجوم... الخ

(٥) تتفق هذه الديانة في كثير من مبادئها مع بعض فرق الشيعة مثل قولها بخروج المهدى آخر الزمان والرجعة والأئمة السبعة وغير ذلك ــ راجع ما كتبه عنها ابن عذارى ١/ ٣٢١ والسلاوى في الاستقصا ١/ ٥١ ــ ٥٢

ألوان التفكير الشيعي. ولكن انتشار الدعاية الفاطمية في نهاية القرن الثالث جعل بعض العلماء الأندلسيين يعتنقون هذا المذهب، ومن هؤلاء محمد بن حيون الحجارى (ت ٣٠٥) الذي لم يكن يذهب مذهب مالك وكان معاصروه يتهمونه بالتشيع[١]، ولكن يبدو أنه كان حريصاً على كتمان مذهبه حتى لا يتعرض للاضطهاد من جانب الفقهاء وعملا بمبدأ التقية الذي كان أصلا من أصول التشيع.

وهكذا ألم الأندلسيون بشيء عن الشيعة ومبادئهم وفرقهم ولكنه كان شيئاً ضئيلا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد تدخلت الدولة في الأمر إذ كان من مصلحة الحكومة الأموية أن يفهم التشيع على أنه مجموعة من الضلالات والبدع لا تتفق مع ما يجب أن يكون عليه المسلم الصحيح من سير بمقتضى السنة وابتعاد عن محدثات الأمور. ولعل مما يمثل نظرة الأندلسيين المثقفين إلى التشيع ومدى ما كانوا يعرفونه منه ما ورد عنه في كتاب أبي عمر أحمد بن عبد ربه المشهور (ت ٣٢٨) «العقد الفريد»[٢].

تصوير الشيعة في كتاب العقد الفريد

وقد أفرد المؤلف من كتابه فصلا لأصحاب الأهواء تكلم فيه ببعض التفصيل عن الشيعة وفرقهم[٣] فهو يتناول بعض العقائد الغريبة التي دانت بها فرق شيعية متطرفة كالسبئية والمغيرية والمنصورية ويأتي ببعض نصوص شعرية لكُثِّير عزة والسيد الحميري وغيرهما في تأييد مذاهبهم. ثم يأتي بكثير من أقوال العلماء في ذم الشيعة والتبرؤ من عقائدهم والمقارنة بينها وبين العقائد اليهودية. ونلاحظ

---

(١) ابن الفرضى: تاريخ... ت ١١٦٤ والحميدى: جذوة... ت ١٥

(٢) عن كتاب العقد راجع البحث القيم الذي كتبه جبرائيل جبور في مجلة المشرق (١٩٣٢ ــ ١٩٣٣) وكذلك Nykl: *Hispano-Arabic Poetry* pp. 35-36

(٣) العقد الفريد ٢/ ٤٠٣ ــ ٤١١ (ط القاهرة ١٩٤٠)

أنه يكثر الرجوع إلى كتاب ابن أبي شيبة[١] ويعتمد كذلك على ابن قتيبة[٢] مما يجعلنا نرجح أن كثيراً مما ذكره ابن عبد ربه قد عرف من قبل عن طريق هذه الكتب المشرقية.

والذي نلاحظه أن ابن عبد ربه لا يذكر لنا شيئاً مطلقاً عن التشيع الإسماعيلي الذي كان في وقت تأليف كتابه (٣٠٠ ــ ٣٢٢) قد ملأ شمال إفريقية منذ سنة ٢٩٦ حيث استطاع أن يزيل دولة الأغالبة السنية ويقيم الدولة الفاطمية العبيدية؛ هذا على الرغم من أن كثيراً من تعاليم الشيعة تسرب حينئذ إلى الأندلس نفسها. وربما كان إضراب ابن عبد ربه عن ذلك تمشياً مع السياسة التي رسمها لكتابه، وهي الاهتمام بالمشرق قبل كل شيء وتقديمه على كل ما يتصل ببلده أو بالمغرب على وجه العموم، أو لعله رأى أن الإشارة إلى مبادئهم في كتابه ربما كانت وسيلة غير مباشرة لنشرها وهو ما لم تكن تقره سياسة الدولة الأموية في الأندلس.

رأى في تشيع ابن عبد ربه

وتعرض لنا هنا مسالة عرضت من قبل للأستاذ جبرائيل جبور في بحثه الذي أشرنا إليه وهي تشيع ابن عبد ربه[٣] فقد رأى الأستاذ الباحث أن ابن عبد ربه متشيع معتدل، وقال إنه ليس من الغريب أن يكون مولى للأمويين ومتشيعاً فكذلك كان أبو الفرج الأصبهاني وأن مظاهر تشيعه ذكره علي بن أبي

---

(١) قدم بهذا الكتاب من المشرق بقى بن مخلد القرطبي في نهاية أيام الأمير محمد (توفى ٢٧٣) وقد أثار عليه فقهاء قرطبة لما جاء فيه من «الاختلاف» حتى أوشكوا على تكفيره لولا أن حماه من ذلك الأمير محمد نفسه ــ ابن الفرضي ت ٢٨١

(٢) لعل ابن عبد ربه اعتمد على كتابه «المعارف» الذي يعتبر موسوعة في تاريخ الأديان والفرق والمذاهب وقد نقل هذا الكتاب إلى الأندلس في فترة مبكرة وأهم من له فضل إذاعة محمد بن عبد السلام الخشني (تُوفي ٢٨٦) هو من أساتذة ابن عبد ربه ومن المعاصرين له: محمد بن موسى الأقشتين وقاسم بن أصبع البياني (توفي ٣٣٧)

(٣) المقالة السادسة من البحث المذكور

أبي طالب مشفوعاً بـ «رضي الله عنه» وذكره وجهة نظر العلويين في النزاع بين علي ومعاوية وقوله عند الكلام عن يزيد بن معاوية: «لا رحمه الله» وهي مظاهر رآها الباحث كافية لإثبات اتجاه ابن عبد ربه الشيعي.

ونحن نرى أن ابن عبد ربه لم يكن متشيعاً على الإطلاق وأنه فضلا عن كونه مولى للأمويين فقد كان مرتبطاً بسياسة الدولة الأموية ارتباطاً شديداً، ونظرة إلى الحالة السياسية في هذا الوقت (٣٠٠ ــ ٣٢٢) تجعلنا نؤكد أن الدولة لم يكن لتتسامح مع مؤلف شيعي النزعة لا سيما إن كان كاتباً له شهرته ومكانته كابن عبد ربه وفي الوقت الذي توترت فيه العلاقات بين حكومة قرطبة الأموية وحكومة القيروان الفاطمية. ولا ننس أن في هذه الفترة (في ٣١٦ = ٩٢٩) أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين معلناً أن كل من ادعى هذا اللقب غيره فهو منتحل له دخيل فيه متسم بما لا يستحقه منه[١]. ولا ريب أنه يعني بهذا التعريض العباسيين والفاطميين معاً بل إن العداوة بين الدولتين المختلفتين في المذهب وصلت إلى حد التدخل العسكري السافر فنجد عبد الرحمن في ٢١٩ (٩٣١) يحتل سبتة من أرض المغرب وتخطب له مساجدها متحدياً الفاطميين بذلك في صراحة[٢]. ولا ريب أن كاتباً كان ينطق بلسان الأمويين حينئذ ما كان باستطاعته ولا من مصلحته أن يكون متشيعاً في هذه الظروف. ثم إن ابن عبد ربه لو كانت له مثل هذه النزعة لما تردد خصومه الكثيرون في اتهامه بها كما اتهموا ابن حيون الحجاري من قبل وما كان ليغفلها من ترجموا له.

أما ما يذكره الباحث من ترحمه على علي أو ثنائه عليه ولعنه ليزيد فما كان هذا يستغرب من أي مسلم سنى، وحتى هذه العبارات أظنها من زيادات

---

(١) راجع البيان الرسمي الذي أذاعه عبد الرحمن بهذه المناسبة
Lévi-Provençal y García Gómez : *Una Crónica anónima*… p. 70

(٢) Lévi-Provençal: *Histoire*… II, 96-97

النساخ الذين كانوا يلذ لهم أن يقحموها تقرباً إلى الله. وقد لاحظ الباحث نفسه أن «العقد» قد زيد فيه الكثير بعد موت صاحبه(١).

على العكس كان ابن عبد ربه أموياً سنياً متعصباً يكره الخروج على الجماعة وتناوله لفرق الشيعة نفسه وعرضه لبعض أقوالهم إنما يدل على كراهيته لها وعدم اقتناعه بها وسخريته منها، وليس فيها ما يدل على أي ميل شيعي، وقد احتفظ لنا ابن الفرضى(٢) بقصيدة لابن عبد ربه يحمل فيها حملة شديدة على كل مذهب يخالف السنة والجماعة، ولندع هذه النقطة لتفصيل أكثر حين نتعرض لرد الفعل الأموي ضد التشيع.

ابن مسرة القرطبي

وأما بشأن ما تسرب إلى الأندلس من العقائد الباطنية في ذلك الوقت فقد تكلم عنه أسين بلاثيوس في بحثه القيم عن «ابن مسرة ومدرسته» ونود أن نشير هنا إلى أن ابن مسرة (ت ٣١٩/ ٩٣١) قضى فترة من حياته الدراسية في القيروان(٣) في الفترة التي بلغ نشاط الدولة الفاطمية الفتية أوجه من الناحية السياسية والدعائية. وقد نبه المستشرق الإسباني الكبير إلى أن هناك آراء لابن مسرة كانت تستوحي من تعاليم الباطنية مثل قوله إنه من الممكن اكتساب النبوة وإنها ليست اختصاصاً أصلا، وقد رد أسين هذا الرأي إلى فكرة المهدي عند الباطنية وقد قاربوا بن مرتبة النبوة(٤) وأنا أرى كذلك أن رد ابن مسرة تدبير العالم إلى «العرش(٥)» لا يخلو من التأثر بعقيدة الإسماعيلية في

---

(١) المقالة التاسعة من البحث وأول من أشار إلى هذه المسألة: T. Nöldeke في *Die Ghassanischen Fürsten aus dem Hause Gafna's* على هامش ص ٥٥

(٢) في ترجمة مسلم بن أحمد الليثي المعروف بصاحب القبلة رقم ١٤١٨ وانظر كذلك صاعد الطيطلى: طبقات الأمم ص ٨٦، ٨٧

(٣) ابن عذارى: بيان ١/ ٢٧٥ وراجع كذلك: Asín Palacios *Ibn Masarra* p. 45

(٤) Asín Palacios: op. cit, 109 y sigts

(٥) ابن حزم: الفصل... ٤/ ١٩٩

ذلك[١] هذا إلى طائفة كثيرة من التعاليم التي أخذها ابن مسرة عن الأفلاطونية الحديثة أو من المدارس الاعتزالية عن طريق الباطنية. وقد استمر تلاميذ ابن مسرة متأثرين بهذه الآراء وظلت آثارهم واضحة فيمن تلاهم من مفكري الأندلس ومتصوفتها. غير أن الدولة رأت أن أمثال هؤلاء المفكرين الذين يتجهون اتجاها باطنياً إنما يكونون خطراً حقيقياً على الدولة إذ أنهم كانوا من ناحية عاملا من عوامل التفكك المذهبي ومن ناحية أخرى فإنهم ربما كانوا أدوات ــ ولو من طريق غير مباشر ــ للسياسة الفاطمية التي كانت تطمع في تحطيم دولة بني أمية.

منذر بن سعيد البلوطى

وبرغم ذلك فقد كان هناك من المفكرين من نزع إلى اتجاه شيعي معتدل دون أن يكون خطراً يهدد الدولة، ومن أمثلة هؤلاء منذر بن سعيد البلوطي (ت ٣٥٥) الذي وصل إلى منصب قاضي الجماعة بقرطبة. وقد خالف منذر جمهور علماء عصره كذلك في مذهبه الفقهي فبينما كانت الدولة تدين بمذهب مالك نراه هو ينزع إلى المذهب الظاهري ويؤلف في الدفاع عنه كتباً، على أنه كان حريصاً برغم ذلك على احترام وحدة الدولة من الناحية المذهبية فكان إذا جلس للقضاء لا يحكم إلا بمذهب مالك[٢]، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن منذراً لم يحاول أن يفرض تشيعه على الناس بل احتفظ به لنفسه ولم يجعل له أثراً في حياته الرسمية إذ كان يتولى أكبر المناصب بعد الخليفة.

أما مصادر تشيع منذر فمن الممكن أن نردها إلى ثلاثة: أولا أصله فإنه

(١) اختلفت الفرق الإسلامية في تأويل «العرش» في قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» ففسره أهل السنة بظاهر اللفظ من أنه العرش أو سرير الملك وأما المعتزلة فقالوا إنه يقصد به الملك وذهب الإسماعيلية إلى أن العرش إنما هو العقل الأول والمبدع الذي صدرت عنه المخلوقات ــ راجع كامل حسين: ديوان المؤيد داعي الدعاة ١١٦

(٢) المقرى: نفح ٢/ ٢٢٨

كان بربرياً ينتسب إلى قبيلة نفزة[١] وثانياً أسرته فالذي بقى من الأخبار عن عائلة منذر يدل على أنها اعتنقت مبادئ شيعية منذ زمن طويل وقد كانت قبيلته نفزة أول من آمن بدعوة ابن القط وقام بنصرته سنة ٢٨٨[٢] وهو يذكر أن خاله كان من أتباع هذا المهدى وكان ممن حضر وقعة سمورة معه. وقد نقل ابن حيان عن منذر بن سعيد طائفة من الأخبار الطريفة عن هذه الثورة رواها منذر عن بعض قرابته[٣] وثالثاً البيئة التي عاش فيها فقد قضى منذر جل حياته في منطقة «الجوف» وتولى القضاء بماردة وما ولاها من المدن ثم تولى هذا المنصب بالثغور الشرقية[٤] وقد رأينا أن هذه البيئات كانت أكثر بلاد الأندلس صلاحية للمبادئ الشيعية وربما أضفنا إلى هذا الثقافة التي تلقاها في المشرق فنحن نعلم أنه درس مع أبي بكر بن المنذر النيسابوري في مكة كتاباً يتناول الفرق الإسلامية واختلافها وهو «كتاب الأشراف» الذي ربما عالج تعاليم بعض فرق الشيعة فلقيت هذه التعاليم من نفس منذر رغبة وهوى.

وقد بدا تشيع القاضي القرطبي في مظاهر مختلفة: نذكر من أولها هذه الحكاية التي ذكرها ابن الأبار[٥] ونقلها عنه المقرى[٦] ويقول راويها وهو أبو عبيد القاسم بن خلف الجبيري إن أباه استضاف بطرطوشة منذر بن سعيد أيام ولايته للثغور الشرقية وذلك قبل أن يلي قضاء الجماعة بقرطبة[٧] فكان منذر إذا تفرغ نظر في مكتبة مضيفه، فمر على يديه يوماً كتاب فيه أرجوزة لابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء الراشدين ويجعل معاوية رابعهم ولم يذكر علياً فيهم،

---

(١) ابن حزم: جمهرة ٤٦٥

(٢) ابن حيان: مقتبس ١٣٤

(٣) ابن حيان: مقتبس ١٣٧

(٤) ابن الفرضى: تاريخ... ت ١٤٥٢

(٥) تكملة: ص ٤٤

(٦) نفح: ٣/ ٢٦٧

(٧) ولى منذر قضاء الجماعة من سنة ٣٣٩ إلى سنة ٣٥٥. الخشنى كتاب القضاة بقرطبة ص ٢٠٦

ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بني مروان إلى عبد الرحمن بن محمد، فلما رأى ذلك منذر غضب وسب ابن عبد ربه وكتب في حاشية الكتاب:

أَوَمَــا على ــ لا برحت معلنــاً يابن الخبيثة ــ عندكم بإمــام؟
رب الكســاء وخيــر آل محمد دانى الــولاء مقــدم الإســلام

ومظهر آخر من مظاهر تشيع منذر هو في ما نقل عنه من آراء عمد فيها إلى تأويل القرآن تأويلات غريبة تعرض ابن حزم بعد ذلك بقرن لتفنيدها والرد عليها(١) وقد تأثر في ذلك بالتأويلات الباطنية التي أكثر منها الشيعة وأصبحت من أهم ما يميزهم، وربما كثر لذلك دوران كلمات الظاهر والباطن في كلامه وقد حفظ لنا النباهي منه جملة صالحة(٢). ولعل هذه النزعة هي التي جعلت مؤرخاً سنياً متحرجاً هو ابن الفرضى يقول في ترجمته إنه كان ينحل في اعتقاده أشياء الله مجازيه بها ومحاسبه عنها.

الدعاة الفاطميون وأثرهم

أما المشارقة الذين كانوا يقدمون إلى الأندلس بقصد الدعاية الشيعية فإنهم كانوا يسترون أهدافهم الحقيقية بستار من المصالح المشروعة كالتجارة أو العلم أو السياحة الصوفية. والواقع أنه في نهاية القرن الثالث وأثناء الرابع انتشر جواسيس الفاطميين في جميع أنحاء الأقطار الإسلامية وربما كانت الدعوة الإسماعيلية خير دعوة استغلت سلاح الجاسوسية بمهارة وإحكام منقطعي النظر وكان الفاطميون في المغرب يجسون النبض ويترقبون للهجوم إما شرقاً نحو مصر أو شمالاً نحو الأندلس ولهذا دخل كثير من عيونهم وجواسيسهم إلى الأندلس

---

(١) ابن حزم: فصل ٤/ ٧٢ من ذلك كلامه عن الجنة والنار وعن عصيان الأنبياء وله في هذه المسألة رأى قريب من رأى الإسماعيلية الذي يؤول خطايا الأنبياء تأويلا يتفق وما يرونه من عصمتهم ــ راجع كامل حسين: ديوان المؤيد داعي الدعاة ص ١٣٤ وما بعدها

(٢) تاريخ قضاة الأندلس ٧٤

ليعملوا على استطلاع أحوالها وتعرف مداخلها ومواطن الضعف فيها ودراسة نظمها السياسة والاقتصادية والدينية ثم بث دعايتهم بقدر ما وسعهم.

أبو اليسر الرياضي

ويبدو أن من أول الجواسيس المشارقة في الأندلس شاعراً مغامراً هو أبو اليسر الرياضي وليس هناك عنه أخبار مفصلة ولا في المراجع ما يصرح بأنه كان جاسوساً[١] ولكن ما بقى من أخباره يحملنا على ترجيح هذا الرأي. ويذكر صاحب «أخبار مجموعة» أنه أديب محتال دخل الأندلس في أيام الأمير محمد مفتعلا كتاباً على لسان أهل الشام يستدعون فيه للدولة المروانية الأندلسية ويعرضون الخطبة لها في بلادهم، ولكن يبدو أن الأمير محمداً فطن إلى أغراضه الخفية ولكنه اختفى به وأكرمه دون أن يمكنه من مباشرة نشاطه[٢]، فاضطر إلى مغادرة الأندلس وذهب إلى مصر ولعله استمر يبث دعايته الفاطمية هناك حتى «وقع صاحبها على خبره فأمر بحبسه»[٣] وكان يحكم مصر حينئذ أحمد بن طولون الذي كان يتوجس خيفة من الدعوات الشيعية لا سيما وأنه قاسي كثيراً من ثوراتهم المتوالية في مصر. ولسنا نعرف كيف تخلص أبو اليسر من سجنه إلا أننا نراه بعد ذلك في القيروان متولياً على الكتابة في أيام إبراهيم بن أحمد الثاني وعبد الله الثاني ابنه ثم لزيادة الله الثالث آخر ملوك الأغالبة وتولى للأخير إلى جانب الكتابة بيت الحكمة[٤]. فلما سقطت دولة الأغالبة (٢٩٦/ ٩٠٨) وقبض عبيد الله المهدي على ناصية الأمر استمر أبو

---

(١) يلاحظ أنه لما كانت مهمة هؤلاء الجواسيس سرية فإنه بطبيعة الحال لم تحتفظ لنا المراجع بأخبار وافية مفصلة عنهم.

(٢) أخبار مجموعة ١٤٦

(٣) أخبار مجموعة ١٤٧ ويمكن أن أقول إن القبض على أبي اليسر في مصر يجب أن يكون قد وقع قبل سنة ٢٦٤ وهي السنة التي مات فيها الفقيه المزني الذي كان له فضل تخليص بعض الأندلسيين ممن قدموا لزيارة أبي اليسر في سجنه.

(٤) المقرى: نفح... ٤/ ١٣١

اليسر على الكتابة له[١]، وربما كان هذا مكافأة له على خدماته السابقة، وقد نص ابن عذارى على أن أبا اليسر كان من وجوه دعوة أبي عبد الله الشيعي وقد رافقه في الحملة التي سيرها الداعي الفاطمي لتخليص الإمام عبيد الله المهدي من سجن بني مدرار وذلك بعد افتتاحه القيروان[٢]. وقد استمر الرياضي في خدمة عبيد الله المهدي حتى مات سنة ٢٩٨/ ٩١٠ وإذا كان أبو اليسر الرياضي لم ينجح كل النجاح في مهمته السياسية في الأندلس فلا ريب أنه استطاع أن ينقل إلى هذه البلاد بعض الثقافة الأدبية الشيعية، فقد أدخل في الأندلس شعر أبي تمام وكذلك شعر دعبل الخزاعي الذي كان من أهم ألسنة الشيعة في المشرق، هذا إلى كثير من رسائل الكتاب العباسيين المحدثين، وله مؤلفات أذاع بعضها في الأندلس[٣] منها مؤلف في القرآن ومشكلة وإعرابه ومعانيه، ولا نستبعد أن يكون قد اتجه فيه اتجاهاً يلائم الدعوة التي كان ينتسب إليها.

ابن هارون البغدادي

وقـد استعان الفاطميون بعد موت أبي اليسر بجاسوس آخر هـو أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي، ويذكر ابن الفرضى أنه تردد بالأندلس أعواماً، وينقل عن سليمان بن أيوب صراحة أن دخول ابن هارون كان بقصد التجسس[٤]، ويظهر أن هذا الجاسوس وفق فيما لم يوفق فيه الرياضي من قبله، إذ أن عريب بن سعد يقول إن عبيد الله المهدي استكتبه بعد أبي اليسر واستعان به على أمر دعوته، فكان له في ذلك رأي جميل ونفع عظيم[٥]، ويبدو أنه لخبرته بأمور الجاسوسية ودربته عليها ولاه عبيد الله المهدي (٣٠٠/ ٩١٢)

---

(١) ابن عذارى: بيان ١/ ٢٢٤ ــ ٢٢٥

(٢) ابن عذارى: بيان ١/ ٢٠٩

(٣) المقرى: نفح ٤/ ١٣٠

(٤) ابن الفرضى: تاريخ... ت ١٩٩

(٥) ابن الأبار: تكملة ت ١٠٤٩

فضلاً عن الكتابة ديوان البريد الذي كان له أهمية كبرى في الدولة الفاطمية فلم يزل يتولى هذا المنصب حتى مات[١]. وقد كان ابن هارون يباشر سلطان واسعة فقد كان هو الذي يولى على القضاء والوثائق في شتى أقاليم الدولة الفاطمية حتى كانت زيادة نفوذه مما شكا منه بعض كبار الموظفين[٢]، على أن ذلك لم يحد من سلطانه، بل إن عبيد الله المهدي حين مات (سنة ٣٢٢/ ٩٣٣) وولى بعده ابنه القائم أقر أبا جعفر على جميع أعماله من بريد وكتابة، وفوض إليه كثيراً من أعمال المملكة[٣]. أما نشاط أبي جعفر البغدادي فلا نعرف بالتفصيل مدى توفيقه في دعايته السياسية والمذهبية، وإن كان يبدو أنه أفاد مواليه الفاطميين بمعلومات على جانب كبير من الأهمية فيما يتعلق بأوضاع الأندلس الاجتماعية والدينية، وذلك بدليل أنهم عهدوا إليه بأكبر مناصب دولتهم، على أننا نعلم شيئاً عن نشاطه الثقافي وذلك لأنه دخل الأندلس متستراً بغرض العلم، ولا ريب أن الثقافة كانت تكوِّن كذلك جزءاً مهماً من برنامج الدعوة الفاطمية، وإلى أبي جعفر البغدادي يرجع فضل نشر كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[٤]، وكذلك كتب ابن قتيبة، وقد نبه الأستاذ أسين بلاثيوس إلى فضل ابن هارون في إذاعة تعاليم الشيعة الفاطميين وكذلك المعتزلة في نفس الوقت[٥]، ويجب أن نشير هنا إلى ما بين الفاطميين والمعتزلة من صلة وثيقة في بعض نواحي تفكيرهم، وإلى أن الاعتزال يعتبر خطوة ممهدة للدخول في المذهب الإسماعيلي.

---

(١) ابن عذارى: بيان ١/ ٢٣٤

(٢) نفس المرجع: ١/ ٢٩٠

(٣) نفس المرجع: ١/ ٢٩٦

(٤) ابن الفرضى: تاريخ... ت ١٩٩ وقد ورد اسم الجاحظ في النص هكذا: ... عمرو بن بحر الحافظ (؟) وهو تحريف ــ وبهذه المناسبة نذكر أن للجاحظ رسائل كثيرة في الإمامة على مذهب الشيعة، وكثيراً من الكتب تتناول الخلاف بين آراء أهل السنة والطوائف الشيعية، وربما كانت هذه الكتب أدوات صالحة للدعاية الفاطمية التي كان يقوم بها المذكور.

(٥) Asín Palacios *Ibn Masarra* … p. 28 y apéndice II no. 2

ابن حوقل النصيبي

ومن الجواسيس الفاطميين الذين قاموا بدور مهم في الأندلس ــ ابن حوقل النًّصيبي (ت ٣٦٧/ ٩٧٧)، دخل الأندلس متستراً بالتجارة على ما يبدو[١]. ويذهب دوزى «Dozy» إلى أنه دخل ليستطلع أحوال الأندلس ولدارستها لمصلحة مواليه الفاطميين، وذلك حينما كانوا يفكرون في توجيه ضربتهم إلى هذه البلاد[٢]. ولعل هذا هو ما يفسر اهتمامه بصفة خاصة بتسجيل دخل الدولة ومواردها الاقتصادية وتعداد خيراتها، ووصفه طرقها ومسالكها، ثم أحوالها من الناحية العسكرية، كل ذلك اهتم ابن حوقل ببيانه في دقة تستوقف النظر، وقد حاول في كتابته أن يقنع الفاطميين بضرورة فتح الأندلس لكثرة خيراتها من ناحية ولضعف أهلها عن الدفاع عنها من ناحية أخرى[٣]، ولكن يظهر أن مشروعه لم يظفر بالتأييد من جانب الحكومة الفاطمية.

مدى نجاح الدعاية الفاطمية

على أية حال كان نجاح الدعاية الفاطمية في اجتذاب أنصار لها من الأندلس محدوداً جداً، وذلك لما كان للمذهب السنى من قوة متأصلة، وإن كان ذلك لا يمنع من القول بأنهم أفلحوا في ضم بعض رجال الفكر إلى صفهم، ومن أمثلة هؤلاء ابن أبي المنظور الذي ولى القضاء لإسماعيل المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين (٣٣٤ ــ ٣٤١/ ٩٤٥ ــ ٩٥٢)[٤]. وربما كان من ثمرات دعاية الفاطميين شاعر إلبيرى قضى فترة شبابه في الأندلس، ثم طرد منها حين عرف اتجاهه الفاطمي، وهذا هو ابن هانئ الأندلسي (ت ٣٦٢/ ٩٧٢) الذي التحق

---

(١) يسميه ياقوت: «التاجر الموصلي» ــ معجم البلدان ١/ ٣٤٨

(٢) R. Dozy: *Histoire des musulmans d’Espagne*, II, p. 125

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ١٠٨ ــ ١١٧

(٤) ابن الأبار تكملة: ترجمة ٣٣٢

بخدمة المعز لدين الله الفاطمي، ثم صار الشاعر الرسمي لدعوة الشيعة العبيدية، ويعتبر شعره وثيقة هامة تطلعنا على نظريات الإسماعيلية في مختلف شئون الدين والعقيدة[١]

٣ ــ رد الفعل الأمويّ ضد التّشيع

تشجيع المذهب السني في الأندلس

ولكن الأمويين لم يكونوا ليقفوا مكتوفى الأيدي من الدعوات الشيعية التي ظلت تلح على الأندلس إلحاحاً شديداً، فوقفوا منذ اللحظة الأولى موقفاً عدائياً صارماً، وواصلوا في الأندلس السياسة التي رسمها لهم أسلافهم في المشرق من المحافظة على المذهب السني والقضاء على كل نزعة تمت إلى التشيع بصلة، ولكن كانت نزعتهم الأموية رغم ذلك معتدلة إلى حد ما، فلم يأمروا بلعن علي بن أبي طالب ولا أحد من أهل البيت على المنابر كما فعل الأمويون في المشرق، وقد كان عملهم حينذاك مما أثار عليهم أهل السنة المعتدلين الذي كانوا يرون لعلي من قرابته وفضله ما يلحقه بالخلفاء الراشدين، دون أن يدخلهم ذلك في زمرة الشيعة، وإننا نجد ابن حزم رغم نزعته الأموية القوية يعيب على خلفاء المروانيين في المشرق ما ارتكبوه من ذلك، بينما يعد من فضائلهم في الأندلس أنهم امتنعوا عن لعن السلف[٢].

على أنهم كانوا يحاولون تجاهل فضائل عَلِيّ مع ذلك في بعض أوقات التوتر السياسي بينهم وبين الدول الهاشمية، ومن أمثلة ذلك ما يقصه الخشنى في معرض الحديث عن اشتغال الأمير محمد (٢٣٨ ــ ٢٧٣/ ٨٥٢ ــ ٨٨٦) بمسألة تعيين قاض للجماعة في قرطبة، فيذكر ان الأمير رأى في المنام كأن النبي والخلفاء الراشدين

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٥، ٦ وانظر كذلك ابن الأبار: تكملة ت ٣٥٠

(٢) ابن عذارى: بيان ٢/ ٥٩

يقدمون فيسلمون على رجل بعينه... إلى آخر القصة[١]، وجدير بالذكر أن الخلفاء الراشدين الذين رآهم الأمير الأموي كانوا أبا بكر وعمر وعثمان، أما على فقد أسقطه منهم.

وأدل على ذلك الأرجوزة التي ألفها ابن عبد ربه، وسرد فيها الخلفاء الراشدين فذكر أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية، وقد رأينا كيف أثار هذا حنق منذر بن سعيد البلوطي حتى أنه لعن ابن عبد ربه ورد عليه[٢]. ويذكر ابن الفرضى في ترجمة محمد بن أحمد بن قادم القرطبي[٢] (ت ٣٨٠/ ٩٩٠) وكان من المحدثين المشهورين أنه سمعه غير واحد يطعن في علي بن أبي طالب، وقد سمعه ابن الفرضى نفسه ينتقص الحسن بن علي حفيد النبي. كما يترجم ابن الفرضى لأحد الأمويين وهو ابن الأزرق الحصنى (ت ٣٨٥/ ٩٩٥) وكان قد خرج من مصر (سنة ٣٤٣/ ٩٥٤) وصار إلى القيروان، فقبض عليه الشيعة وحبس بالمهدية أكثر من ثلاث سنوات، ووصل إلى الأندلس سنة ٣٤٩/ ٩٦٠، فأنزله الحكم المستنصر وتوسع عليه، وكان هذا الأموي محدثاً شارك بقدر ما وسع علمه في الحملة ضد الفاطميين، ويبرز ابن الفرضى بين ما رواه حديثاً في تكذيب ما يدعيه الشيعة في مسألة المهدى، يروى فيه عن النبي أنه لا مَهْدِيَّ إلا عيسى بن مريم[٣].

موقف الأمويين من يوم عاشوراء

ومن الأشياء التي لها دلالتها في هذا الشأن موقف الأمويين من يوم

---

(١) الخشنى: كتاب القضاة بقرطبة ١٤

(٢) وقد شك الأستاذ جبرائيل جبور في نسبة هذه الأرجوزة لابن عبد ربه، وذلك تمشيا مع رأيه في أن هذا المؤلف كان متشعياً (المقالة السادسة من البحث)، وقال إن هذه الأرجوزة ربما كانت لأحد أبناء ابن عبد ربه أو أحفاده، وقد بينا فيما سبق الأسباب التي تحملنا على إنكار تشيع ابن عبد ربه وإثبات تعصبه للأمويين، ولا مانع مطلقاً من أن تكون الأرجوزة له، صنعها قاصداً كسب رضاء الأمويين في وقت اشتدت عداوتهم فيه لخصومهم التقليديين وليس هناك ما يؤيد جواز كون الأرجوزة لأحد أبناء ابن عبد ربه أو بعض قرابته.

(٣) ابن الفرضى: ت ١٣٧٥

عاشوراء، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي في كربلاء (٦١/ ٦٨٠)، وهو يوم يعتبره الشيعة على اختلاف طوائفهم وفرقهم يوم حداد وحزن، وقد عمد غلاة أهل السنة إلى اعتبار هذا اليوم عيداً يظهرون فيه الفرح ويتوسعون في الأطعمة، وذلك مكايدة للشيعة وشماتة بهم، وقد اخترع كل فريق من الأحاديث التي أجروها على لسان النبي ما يؤيدون به آراءهم. أما في الأندلس فقد اتجهوا كما هو منتظر اتجاه الغلاة من أهل السنة، وتروى لعبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨/ ٨٤٢) كبير فقهاء قرطبة في أيام عبد الرحمن الأوسط ــ أبيات يخاطب بها الأمير الأموي يقول فيها:

لا تنس ــ لا ينسك الرحمن ــ عاشورا واذكره، لا زلت في التاريخ مذكوراً
قال النبي ــ صلاة الله تشمله ــ قولا وجدنا عليه الحق والنورا:
فيمن يوسع في إنفاق موسمه ألاَّ يزال بذاك العام ميسوراً[١]

وهكذا نراه يحض الأمير على الاحتفال بهذا اليوم ناظماً بذلك الحديث الذي يستندون إليه في هذه المسألة.

تأصل التعلق بالأمويين في الأندلس

وقد نجح الأمويون في أن يصبغوا الأندلس بلون أموي، واستطاعوا أن يؤصلوا في نفوس شعبهم كراهية التشيع، واستمر ذلك طوال الوقت الذي كانت تحتفظ فيه الخلافة الأموية بقوتها ووحدتها[٢]، وإذا كان بعض العقائد الشيعية قد تسرب في هذه الأثناء إلى الأندلس، فقد كان أثرها السياسي ضعيفاً، واستمرت الأندلس أموية متعصبة، وربما صور ذلك الطريقة التي تناول بها المؤرخون

(١) المقرى: نفح ٢/ ٢١٤

(٢) بل استمرت النزعة الأموية في الأندلس بعد ذلك بكثير، ويروى المقرى بيتاً لأحد الأندلسيين يمثل رأيهم في معاوية (نفح ٣/ ٤٠٩):

ومن يكن يقدح في معاوية فذاك كلب من كلاب عاوية

الأندلسيون المتقدمون تراجم من نُسِبَتْ إليهم آراء شيعية، فابن حيون الحجارى يُزَنُّ (أي يتهم) بالتشيع، ومنذر بن سعيد له معتقدات «الله مجازيه بها»، ويكتب المقدسى عن الأندلس في القرن الرابع، فيقول: إن الأندلسيين إذا عثروا على شيعي فربما قتلوه[١]. وليس في هذا القول كثير من المبالغة.

وحتى ابن حزم[٢] على رغم اعتداله وتفضيله علي بن أبي طالب على معاوية، فإنه حين عرض للخلاف بينهما انتهى إلى صحة إمامة عَلِيّ وأنه أحق بالخلافة من الناحية النظرية، وأما موقف معاوية فإنه كان عن اجتهاد منه أخطأ فيه وهو مأجور على خطئه، فالنبي يقول إن المجتهد إذا أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران[٣]، كما أنه يصحح إمامة معاوية من ناحية أخرى: وهي أنه كان أعرف بالسياسة من علي، وهذا من شروط الإمامة، حتى وإن كان علي أكثر منه ديناً وفضلا[٤]. وكما دافع ابن حزم عن شرعية الدولة الأموية في المشرق، دافع كذلك عن شرعيتها في الأندلس بحرارة وإخلاص، مبيناً ما وصلت إليه الأندلس في أيامهم من ازدهار وعظمة[٥]، وكان يرى أن سقوط الدولة المروانية الأندلسية إنما هو بداية لنهاية الإسلام في هذه البلاد[٦]. ولعله لهذه النظرية وصفه ابن سعيد في ترجمته له بأنه كان متشيعاً لبني أمية منحرفاً عمن سواهم من قريش[٧].

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم ٢٣٦

(٢) إنما اخترنا ابن حزم على رغم تأخر وفاته (٤٥٦/ ١٠٦٣) وذلك لأنه يمثل هذه المدرسة من المفكرين التي تم تكوينها ونضجها في أيام الخلافة الأموية.

(٣) الفصل: ٤/ ١٦٠، ١٦١

(٤) نفس المرجع: ٤/ ١٧١

(٥) Asín Palacios: *Abenbázam*… I, p. 93 وراجع المقرى: نفح ١/ ٣٠٦

(٦) Asín Palacios: *Abenbázam*… I, p. 85

(٧) المغرب: ٣٥٥

الدعاية الأموية في المشرق وشمال إفريقية

هذا هو ما كان يدين به الأندلسيون بوجه عام في أيام الخلافة، وقد تبع الاحتكاكَ القويَّ بين الدولة الأموية والدول الشيعية التي أحاطت بها منذ عهد بعيد أن حاول الأندلسيون نشر آرائهم بشتى الطرق بين هذه الشعوب الشيعية سواء في المشرق، أو في شمال إفريقية. وقد اتخذ نشاط الأندلسيين مظاهر شتى: مظاهر سياسية حاولوا فيها أن يتصلوا بأنصارهم ويشعلوا الثورات ضد خصومهم الشيعة، ومظهراً ثقافياً كان يمثله العلماء الذين جندهم الأمويون للدفاع عن آرائهم السنية وإذاعتها.

ثورة أبي ركوة الأموي في برقة

أما من الناحية السياسية فإنهم حاولوا إثارة الثورات في المشرق في وجوه بني العباس والعلويين، وقد خصص ابن حزم في كتابه «نقط العروس» فصلاً لمن خَطَبَ باسم بني أمية في المشرق[١]، ويهمنا من الثورات الأموية تلك التي قام بها أحد أفراد البيت الأموي ضد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، ويحدثنا المؤرخون أنه في سنة ٣٩٥/ ١٠٠٥ خرج على هذا الخليفة في برقة ثائر يسمى الوليد بن هشام من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل وكان يلقب بأبي ركوة، وكان قد خرج من الأندلس مظهراً التصوف واشتغل بتعليم الصبيان، ثم زعم أن مسلمة بن عبد الملك بشر بخلافته[٢]. ودعا على المنابر باسم الخليفة الأندلسي هشام المؤيد، وكان يلعن الحاكم بأمر الله وآباءه، واستولى على برقة، وانتصر على جميع الجيوش التي وجهها إليه الحاكم، واستطاع في سنة ٣٩٧/ ١٠٠٧ أن يطارد الجيوش الفاطمية حتى أهرام الجيزة، ولكنه انهزم أخيراً وأسر وعرضه الحاكم

(١) نقط العروس: ٧٦
(٢) المقرى: نفح ٣/ ٤١١ ــ ٤١٢

في شوارع القاهرة عرضاً مزرياً، ثم قتله وصلبه[١]، وقد كانت نتيجة هذه الثورة أن أفرغ الحاكم غضبه على أهل السنة، فنقش سب الصحابة على جدران المساجد لا سيما الأمويين منهم.

وهذه الحركة ــ على رغم تأثرها بالثورات الشيعية ــ لا نستبعد أن يكون للعامريين أو لوسطائهم يد في تحريكها في قلب الدولة الفاطمية، لا سيما ونحن نعلم مدى مطامح المنصور بن أبي عامر الذي كان يرجو أن يمد سلطانه إلى المشرق فيصل إلى وادي النيل ويملك الشام والحجاز كما صرح في أبيات له[٢].

السياسة الإفريقية للخلافة الأموية

وهناك الميدان الذي تنافست فيه سياستا الدولتين الفاطمية والأموية، وهو شمال افريقية. ولسنا نريد هنا تفصيل السياسة الإفريقية التي اتبعتها الدولة الأموية الأندلسية، أو مراحل التنافس والاحتكاك بينها وبين الدولة الفاطمية[٣]، ولكنا سنعرض لبعض آثار هذه السياسة في النشاط الدعائي والثقافي الذي باشره الأندلسيون في البلاد الخاضعة للنفوذ الفاطمي.

وينبغي أن نبين هنا أن الإمارة الأندلسية كانت تعمل منذ عهد بعيد على محاربة أي دعوة شيعية في شمال إفريقية، فمنذ تكونت دولة الأدارسة الشيعية في المغرب الأقصى (١٧٢/ ٧٨٨) عملوا في توطيد صلاتهم ببعض الدويلات المغربية حتى ما كان يخالفها في الناحية المذهبية كدولة بنى رستم الخارجية في تاهرت، وذلك حرصاً على إضعاف جيرانهم الأدارسة العلويين.

---

(١) راجع في هذه الثورة كذلك ابن الأثير ٧/ ٢٣٤ ــ ٢٣٧، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ٤/ ٢١٢، ابن خلكان: وفيات ١/ ١٢٦

(٢) المقرى: نفح ١/ ٣٨٣

(٣) راجع في تفصيل سياسة الأمويين في افريقية Lévi-Provençal: *Histoire*… II, 86-110 وقد ترجم هذا الفصل إلى الإسبانية المستشرق الأستاذ E. García Gómez في مجلة *Al-Andalus* vol. XI, 1946

وكانت لقرطبة كذلك بعواصم المغرب إلى جانب العلاقات السياسية ــ صلات أخرى أهمها التجارية، وإننا نلاحظ أنه في القرن الثالث الهجري بدأ الأندلسيون يتدفقون إلى السواحل الإفريقية وجزر البحر الأبيض، فنراهم يحتلون جزيرة اقريطش (كريت) بعد ثورة الربض، وهم يشاركون في فتح صقلية، ثم يبدأون غزو المغرب الأوسط فينشئون معظم ثغور هذا الجزء من إفريقية مثل تنس Tenés ووهران Oran وبونة Bona وبجاية Bujía ومرسى الدجاج[١]. وقد تبع هذا النشاط السياسي والتجاري بلا شك آثار ثقافية ظهرت بعد ذلك عندما استفحل النزاع بين الأمويين والفاطميين في شمال إفريقية.

الدعاية الأندلسية للمذهب السني في المغرب

وقد ضاعف الأندلسيون نشاطهم حين ظهرت الدولة الفاطمية وتزايد اهتمام الخلافة القرطبية بالشئون الإفريقية وبدت آثار هذا النشاط في مظاهر شتى:

١ ــ كان لحكومة قرطبة عيون ووسطاء منبثون في جميع أنحاء المغرب[٢]، وكان هؤلاء الجواسيس يوافون حكومتهم بما يهمها من أخبار هذه البلاد، وساعد هؤلاء في مهمتهم وجود جاليات أندلسية ضخمة في كل مدينة إفريقية تقريباً، ولم تكن هذه الجاليات ــ في الغالب ــ تحرص على مصلحة البلاد التي استوطنوها بقدر ما كانت تحرص على مصلحة البلد الذي كانت هجرتهم منه، كما أنها كانت شديدة التمسك بالعقيدة السنية التي كانت قد تأصلت في الأندلس[٣]، شديدة الكراهية للمذهب الشيعي إلى حد الاستماتة في قتاله، ولعل هذا هو السبب الحقيقي الذي جعل حياة الدعوة الإسماعيلية لا تطاق في

(١) انظر Lévi-Provençal: *Historia de España* (trad. García Gómez) p. 223 y sigts.

(٢) ابن سعيد: المغرب ١٨٠

(٣) وربما أيد ذلك ما يقوله السلاوى من أن المذهب المالكي إنما انتقل إلى المغرب من الأندلس ــ الاستقصا: ٦١

المغرب، فعزموا على إخلاء هذا الميدان والبحث عن مستقر آخر وجدوه أخيراً في أرض مصر.

ويدلنا على هذا أن الفقهاء الأندلسيين هم الذين كانوا يحملون لواء المعارضة للفاطميين دائماً، ومن أول هؤلاء الفقيه القرطبي يحيى بن عمر (ت ٢٨٩/ ٩٠١)(١) الذي استوطن القيروان العاصمة الأولى للدولة الفاطمية، وكان سنياً شديد الحملة على البدع، وقد كان هذا الفقيه دائم الفخر بأنه أموي الولاء والمنزع(٢).

ولهذا فقد كان الأندلسيون محل اضطهاد شديد من الفاطميين، ففي سنة ٣٠٠/ ٩١٢ قبض على أحد أبناء التجار الأندلسيين هو أبو جعفر ابن خيرون، وكان من كبار أثرياء القيروان، وهو صاحب مسجد وعدة فنادق، ثم قتل، وذلك بسعي المروزى قاضي الشيعة(٣). وفي سنة ٣٠٩/ ٩٢١ أمر عبيد الله المهدي بقتل الزاهد الشذونى وذلك لتفضيله بعض الصحابة على عليّ(٤)، ويذكر ابن الأبار أن عبيد الله المهدي كتب إلى سعيد بن صالح أمير نكور(٥) أبياتاً من الشعر يدعوه فيها إلى طاعته، فكلف سعيد شاعره بأن يرد على أبياته بأبيات شديدة اللهجة(٦)، وكان هذا الشاعر هو الأخمش الطليطلى(٧).

---

(١) ابن الفرضى: تاريخ... ت ١٥٦٦

(٢) المالكي: رياض النفوس ١/ ٣٩٨ ولعله يعني بقوله أصحاب البدع الفاطميين بوجه خاص.

(٣) ابن عذارى: ١/ ٢٣٥

(٤) نفس المصدر: ١/ ٢٦٢

(٥) كانت نكور إمارة ساحلية على البحر الأبيض مواجهة للسواحل الأندلسية، وكانت تحكمها الأسرة الصالحية السنية وقد كانت هذه الدولة الصغيرة أشبه بمحمية أندلسية (ابن الأبار يسمى أميرها سعيد بن صالح والي نكور للأمير عبد الرحمن)، وقد استطاعت أن تقف في وجه الفاطميين متحدية إياهم في صلابة وشجاعة، ولهذا فقد أمدتها قرطبة بكل ما استطاعت من تأييد مادي وروحي ــ ابن عذارى: بيان ١/ ٢٤٦

(٦) ابن عذارى، ١/ ٢٤٩ ــ ٢٥٠

(٧) ابن الأبار: الحلة السيراء ترجمة ١١١

وفي مصـــر

وأما في مصر، فقد وصل إلى رياسة فقهاء المالكية بها إبان الدولة الإخشيدية فقيه أندلسي الأصل هو أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي، وكان هذا الفقيه يذم الفاطميين أشد الذم، وكان يدعو على نفسه بالموت قبل مجيء دولتهم(١)، ولعله من أجل هذا استحق مكافأة الحكم المستنصر الذي بعث إليه بصلاته من قرطبة(٢)، وقد مات هذا الفقيه بمصر سنة ٣٥٥/ ٩٦٦ قبل الغزو الفاطمى.

استقبال الأندلس للاجئين السياسيين

٢ ــ وإتماماً لهذه السياسة، كانت قرطبة تفتح ذراعيها لكل لاجئ سياسي يهرب إليها من اضطهاد الشيعة، سواء من شمال افريقية أو من مصر: ومن أمثلة القادمين من مصر ابن الأزرق الأموي الذي أشرنا إليه فيما سبق وكان قد خرج من مصر فحبسته الحكومة الفاطمية في المهدية ربما لشكهم في كونه جاسوساً أموياً، ثم تمكن من الهرب، فأكرمه الحكم المستنصر، وظل في ضيافته حتى توفي سنة ٣٨٥/ ٩٩٥. ومنهم كذلك إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي الذي رحل من مصر سنة ٣٦٠/ ٩٧٠ بعد أن افتتحها الفاطميون، فحل من المستنصر محلا طيباً، وكان فقيهاً مالكياً له مكانته(٣).

أما الوافديون على الأندلس من المغرب فمنهم ابن الخراز المليلى الذي كان قاضياً بمليلة «Melilla»، وهرب إلى قرطبة سنة ٣٢٥/ ٩٣٦ خشية من جنود الشيعة، فسجل له الناصر على قضاء بلده، وكان فقيهاً شاعراً(٤). وكذلك حكم بن

(١) ابن فرحون: الديباج المذهب ٢٤٨

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ترجمة الحكم المستنصر رقم ١١٤

(٣) المقرى: نفح الطيب ٤/ ٦٩

(٤) ابن الفرضى: تاريخ... ت ٢٠٠

محمد القيرواني القرشي (ت ٣٧٠/ ٩٨٠) الذي تردد بين قرطبة والقيروان، وأكرمه الحكم المستنصر أيضاً، وربما شارك في النشاط الأموي ضد الشيعة، بدليل ما يذكر من أنه تعرض لسجن عبيد الله المهدي بسبب مهاجمته للفاطميين[١].

تشجيع التأليف في الشؤون الإفريقية الشيعية

٣ ــ كذل عُنِيَتْ الخلافة أشد العناية بتشجيع حركة التأليف في الشئون الإفريقية، لا سيما ما يتصل منها بالشيعة. ويكاد الخليفة الأموي العالم الحكم المستنصر أن يكون هو صاحب هذه السياسة، فقد كلف محمد بن يوسف القيرواني التاريخي الوراق بتأليف موسوعة له في إفريقية ومسالكها وممالكها وحروبها والقائمين عليها[٢]. ولسنا نرى أن هذا كان بقصد العلم فقط، بل ربما كان كذلك تمكيناً للسياسة التقليدية التي جرت عليها الخلافة الأندلسية في الشمال الإفريقي. وقد انتهز الحكم كذلك فرصة سفارة أبي صالح زَمُّور البرغواطى حين قدم عليه من قبل حليفه أمير برغواطة سنة ٣٥٢/ ٩٦٣، فسأله أن يكتب له أخبار برغواطة ونسبهم وديانتهم، فأخبره بذلك، وأمر المستنصر بترجمة كتابه إلى العربية (من البربرية). وعن هذا الكتاب نقل كثير من المؤرخين معلوماتهم عن تلك الديانة[٣]. وقد وجه الحكم عناية خاصة إلى الشئون الشيعية، وما يتعلق بالعلويين على وجه العموم، بل شارك هو في ذلك، فألف بنفسه كتاباً في أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب[٤]، وقد نقل عنه ابن عذارى رأيه في مسألة نسب عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية، ومن الغريب أنه يرى صحة هذا النسب[٥]. وقد كلف معاويةَ بن هشام المرواني المعروف بابن الشِّبَانِسِيَّة بأن

---

(١) نفس المرجع ت ٣٧٥

(٢) ابن الأبار: تكملة ت ١٠٥٠

(٣) ابن عذارى: بيان ١/ ٣١٨

(٤) المقرى: نفح ٤/ ٦٠

(٥) ابن عذارى: بيان ١/ ٢١٩

يؤلف له كتاباً آخر في نسب العلوية وغيرهم من قريش، فوضع له كتاب «التاج السَّنِيّ في نسب آل عَلِيّ» الذي يحتوي ــ كما يبدو ــ على كثير من الأخبار عن الشيعة في المغرب والأندلس[١].

٢ ــ التشيع في أيام ملوك الطوائف

قيام الدولة الحمودية

١ ــ حينما سقطت الخلافة الأموية في قرطبة، وفشلت جميع المحاولات التي بذلت لإعادتها، بدا أن الجو أصبح صالحاً لكي تثمر الدعوات الشيعية التي ابتدأت تنتشر في الأندلس منذ زمن بعيد، وقد أحسن العلويون فعلا انتهاز هذه الفرصة وتحقق لهم تكوين أول دولة علوية يخطب باسمها على منابر الأندلس، وتلك هي الدولة الحمودية، ولكنها لم تلبث إلا فترة قصيرة، إذ انتهت بعد نحو نصف قرن، وهو تاريخ ــ على قصره ــ حافل بالحوادث محتاج إلى مزيد من الدراسة[٢]. والحموديون ينتسبون إلى إدريس بن الحسن العلوي الذي كون سنة ١٧٢/ ٧٨٨ أول دولة علوية في الغرب الإسلامي.

تفكك العناصر الاجتماعية

٢ ــ وقد تميزت هذه الفترة من الناحية الاجتماعية بانحلال العناصر التي كان المجتمع الأندلسي يتكون منها، والتي استطاعت الخلافة الأموية أن تجعل من جميعها كتلة واحدة ومجتمعاً متماسكاً. وقد تبع الانحلالَ السياسيَّ الذي أصيبت به الأندلس بعد سقوط الخلافة ــ تفكُّكٌ اجتماعيٌّ عنصريٌّ: فانحاز الصقالبة أو الفتيان العامريون إلى شرق الأندلس، وبقى الزعماء العرب مسيطرين على جزء كبير من غرب شبه الجزيرة، وأما البربر فتجمعوا في الجنوب الشرقي

---

(١) ابن الأبار: تكملة ١٠٧٨

(٢) في التاريخ السياسي للدولة الحمودية راجع:
R. Dozy: *Histoire*… III, pp. 3-6, 16-23;
Lévi-Provençal: *Histoire*… II, 326-333;
Prietro y Vives *Los reyes de taifas* 21-32

قريباً من العدوة المغربية. وقد رأينا من قبل كيف كان التشيع ينتشر حيث يوجد البربر[١]، وفعلا كانت الدولة الحمودية بربرية خالصة، وينقل ابن بسام عن ابن قتيبة في ذكر العلويين من أجداد بني حمود أنهم انتهوا «إلى طرف بلاد البربر فنكحوا إليهم وتبربروا معهم»[٢]. وكان علي بن حمود أول خلفائهم كثيراً ما يتكلم بالبربرية رغم أصله العربي[٣]. وحتى الإمارات البربرية المستقلة كانت تدين بالدعوة الحمودية، مثل دولة بن زيرى الصنهاجيين في غرناطة، الذين بقيت نزعتهم الشيعية حتى نهاية دولتهم تقريباً[٤]. أما الأندلسيون فإنهم رأوا لذلك في الدعوة الشيعية احتلالا بربرياً مقنعاً، فقاوموها بكل ما لديهم من قوة، وقد كان هذا أيضاً مما دفع البربر إلى التكتل والتجمع، حتى لا يفتك بهم الأندلسيون، وزادت بذلك مظاهر الانحلال إذ أضيف إلى العاملين السياسي والاجتماعي عامل ثالث: هو المذهبي الديني بين الشيعة والسنة.

الحرية الفكرية

٣ ــ أما من الناحية الفكرية فإننا نلحظ طوال هذه الفترة حرية لم تكن الأندلس تتمتع بها في أيام الخلافة المروانية، وكان لهذه الحرية أثر في عودة كثير من العقائد الشيعية إلى الظهور، دون أن تلاحقها المطاردة والاضطهاد من

---

(١) وجدت في أيام الخلافة الأموية هجرات بربرية ولكن كان معظمها من قبيلة زناتة التي كانت موالية للأمويين، ثم إن الخلافة استطاعت أن تقمع كل نزعة منهم إلى التمرد، أما في أيام الدولة العامرية فقد استعان المنصور بن أبي عامر وابناه عبد الملك وعبد الرحمن من بعده بفرق من قبيلة صنهاجة، وكان هذا أول عوامل انحلال الدولة، إذ إن الصنهاجيين كانوا دائماً شيعة موالين للفاطميين، ولم ينسوا في الأندلس نزعتهم الشيعية، بل بلغ نفوذهم أن كانت الشريعة السنية لا تطبق عليهم في أيام عبد الرحمن بن المنصور المعروف بشنجول Sanchol، كما فرض عبد الرحمن هذا على أهل دولته من الأندلسيين أن يتزيوا بزي البربر الصنهاجيين (ابن عذارى: البيان المغرب ٣/ ٤٨) وقد قرب هذا نهاية الدولة الأموية وعجل بظهور الدعوة العلوية البربرية.

(٢) ابن بسام: الذخيرة القسم الأول، ١/ ٧٨

(٣) ابن الخطيب: أعمال الاعلام ١٤٢

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ٩١

جانب الحكومة. وقد أوضح الأب «لوبِث أورتِث» عجز ما سماه بـ «محاكم الإيمان» في ذلك الوقت عن إدانة من اعتنق عقيدة تخالف الجمهور، وإلى ضعف هذا اللون من المحاكم بعد قوته وسيطرته أيام الخلافة الأموية[١]. وفعلا نرى في هذا الوقت من واصل تعاليم مدرسة ابن مسرة، دون أن يتعرض لأدنى اضطهاد من الدولة، رغم ما في تعاليم هذا المَسَرِّىِّ من خروج صريح على الدين[٢].

تأثير بغداد على الثقافة الأندلسية

وقد سمحت هذه الحرية لمختلف ألوان الثقافة الشرقية بالانتشار في الأندلس، بعد أن كانت الخلافة الأموية تفرض عليها رقابة قوية، وتختار منها ما يتناسب مع ما يكفل لها السلطة الروحية في البلاد، وتدين ما سوى ذلك. وقد استطاع الأستاذ «غرسية غومس» أن يبرز في قوة وبيان مدى ما كان للحضارة البغدادية من نفوذ طاغٍ على هذه الممالك الأندلسية الصغيرة، التي لم تكن إلا صوراً للمدينة الشرقية العظيمة[٣]. وعلينا أن نذكر أن بغداد في هذا الوقت كانت من أهم المراكز الشيعية، منذ استطاع بنو بويه ــ وهم من غلاة الشيعة ــ الاستيلاء عليها سنة ٣٣٤/ ٩٤٥، وقد ازدهرت في أيامهم شتى ألوان الثقافة الشيعية. وانتقل إلى الأندلس منها الكثير: ففي هذا العهد نقلت رسائل إخوان الصفا التي كان أول من أدخلها إلى الأندلس أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني القرطبي (ت ٤٥٨/ ١٠٦٥)[٤]، وهي رسائل ذات نزعة شيعية واضحة، حتى إنها نسبت

(١) J. López Ortiz: *El tribunal de fé de los Omeyas cordobeses* (en Gruz y Raya. Madrid 1933) p. 57

(٢) هو إسماعيل بن عبد الله الرعينى، وكان أنصاره يعتبرونه إماماً ويؤدون إليه الزكاة. راجع: ابن حزم: الفصل ٤/ ٢٠٠ وكذلك Asín Palacios *Ibn Masarra* … p. 122

(٣) E. García Gómez: *Bagdad y los reinos de Taifas* (en Revista del Occidente 1934, tomo XLIII 2-22) p. 9

(٤) صاعد الطليطلى: طبقات الأمم ٩٤ وابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٤٠

إلى بعض أئمة العلويين[١]. كذلك كانت أيام بني بويه في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس هي أزهر عصور الأدب الشيعي، وفي ظلها نشأ أبو بكر الخوارزمي (ت ٣٨٥/ ٩٩٥) وبديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨/ ١٠٠٧) الكاتبان المعروفان، ومن الشعراء الشريف الرَّضِيُّ (ت ٤٠٥/ ١٠١٤) ومهيار الديلمى (ت ٤٢٨/ ١٠٣٦)، وكل هؤلاء شيعة، وكلهم باشر أثراً كبيراً على الأدب الأندلسي كما سنبين، وقد استفاد الأندلسيون من معظم هؤلاء عن طريق المجموعة الأدبية الضخمة التي ألفها أبو منصور الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩/ ١٠٣٧) باسم «يتيمة الدهرة»، وقد كان لها مكانة ممتازة وأثر عظيم في الأندلس.

ازدياد صلة الأندلس بمصر وشمال افريقية

ثم أن الصلة لم تنقطع بين الأندلس ومصر وشمال افريقية، حيث كانت الدولة الفاطمية الإسماعيلية لا تزال تحكم، بل إن هذه الصلة زادت وقويت بسقوط الدولة المروانية وقيام الدعوة العلوية في بعض جهات الأندلس، وقد تبودلت بعض الرسائل بين علي بن مجاهد العامري صاحب دانية «Denia» والخليفة الفاطمي المستنصر بالله في سنة ٤٥٢/ ١٠٦٠، وقد قام بكتابتها من جانب علي بن مجاهد الأديب المشهور أبو الأصبغ عبد العزيز ابن أرقم الوادي آشى[٢]، كما هاجر الكثيرون من الأدباء من شمال إفريقية ومصر إلى الأندلس، وقد خصص ابن بسام الشنتريني لهؤلاء الغرباء جزءاً من القسم الرابع من كتابه «الذخيرة».

نفوذ اليهود في غرناطة

ولقد كان كذلك من مظهر الحرية التي تمتعت بها الحياة الفكرية الأندلسية ــ لا سيما في ظل الدعوة العلوية ــ تلك الحماية التي بسطها بنو زيرى في غرناطة على

(١) طبعت هذه الرسائل في القاهرة سنة ١٩٢٨ في ٤ أجزاء، راجع المقدمة التي كتبها أحمد زكي لهذه الطبعة ص ٣١

(٢) ابن الأبار: التكملة ص ٦٢٢ ت ١٧٣٥

اليهود. وقد حاول «دوزى» تعليل هذه الحماية بانعدام ثقة هؤلاء البربر أمراء في العرب[١]، وزاد «هنرى بيريس» على ذلك أسباباً: منها المقدرة الفائقة التي امتاز بها اليهود في معالجة المسائل الاقتصادية، وكانت مملكة غرناطة ترزح ــ كغيرها من هذه الدويلات ــ تحت أعباء مالية باهظة، ومنها كذلك النفوذ الذي باشرته الثقافة اليهودية على الشعب البربري الذي لم يكن قد تم تعريبه بعدُ، وقد استند «بيريس» في إثبات ذلك إلى أبيات لابن عمار الشِّلْبِيِّ وغيره في العلاقة بين اليهودية والبربرية[٢]. وقد أشار الأستاذ «ملياس فاليكروسا» إلى أن هذه العوامل كلها كان لها أثر عظيم في ازدهار الثقافة الإسرائيلية في غرناطة، وفي الصراحة التي عبر بها المفكرون في ظل دولتها عن آرائهم ومعتقداتهم بشكل لا نجد له مثيلاً من قبل[٣]. ونحن نضيف إلى كل ذلك عاملا آخر لعله كان من أهم ما مكن لليهود في غرناطة، ذلك هو أن الزيريين كانوا يدينون بالدعوة الشيعية[٤]، وقد كان بين التشيع واليهودية صلة قديمة، وتأثر الشيعة منذ نشأتهم بتعاليم الديانة اليهودية، بل إن عبد الله بن سبأ ــ أول من جعل للتشيع صبغة مذهبية واضحة ــ كان يهوديَّ الأصل[٥]، وقد أشرنا إلى المقارنة التي أوردها ابن عبد ربه بين عقائد الشيعة وهذه الديانة[٦]، كما أشار ابن حزم إلى بعض

---

(١) R. Dozy: *Histoire*… III, 19-20

(٢) H. Pérès: *La Poésie andalouse en arabe classique*, p. 268-270

(٣) José Mª. Millás Vallicrosa: *La Poesía sagrada hebraico-española* p. 43

(٤) بينا أن الزيريين كانت فيهم نزعة شيعية حتى بعد أن ضعفت الدولة الحمودية، ولعل من مظاهر تفكيرهم الشيعي ما كانوا يعتقدونه من أن أئمتهم مختارون من قبل الله، وأن عقولهم أجل وأنفس من عقول سائر الناس ــ راجع مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيرى في غرناطة، وهي المسماة بـ «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيرى» وقد نشر ليفي بروفنسال منها قطعاً:

E. Lévi-Provençal: *Les mémoires*… en Al-Andalus, 1935, p. 268

(٥) في هذه الصلة راجع بحث فان فلوتن Van Vloten عن «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات» ترجمة حسن إبراهيم وزكي إبراهيم ص ١١٩ وما بعدها.

(٦) العقد الفريد ٢/ ٤١٩، ٤١٠

الآراء المتشابهة التي يدين بها الشيعة واليهود[١]، وهذا هو ما جعلنا نعد هذا التشابه والتقارب مما أتاح الفرصة لبني النغريلة في غرناطة أن يتبوؤا أسمى مناصبها، ويتمتعوا فيها بحرية جعلت علماءهم يجادلون علماء المسلمين مدافعين عن ديانتهم في قوة وثقة[٢]. ولعله ليس من محض الصدفة أن يكون اليهود في نفس هذا الوقت هم المتقلدون لأرفع المناصب في الدولة الفاطمية في مصر وفي غيرها من الدول الشيعية مثل إيران[٣]، وقد كانت صلة الجاليات اليهودية قوية لذلك بين بعضها والبعض الآخر، كما لاحظ ابن حزم[٤].

مظاهر التشيع في الحياة الفكرية

تصوير الشيعة في «الفصل» لابن حزم

خير ما يطلعنا على مدى معرفة الأندلسيين بالتشيع والمذاهب الشيعية في هذا الوقت هو الكتاب الذي وضعه أبو محمد ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦/ ١٠٦٣) وهو المسمى بـ «الفصل في الملل والأهواء والنحل[٥]»، وهو ثاني مؤلف أندلسي يتكلم عن فرق الشيعة بعد كتاب العقد لابن عبد ربه، وإذا قارنا بين ما يحتوي عليه الكتابان، تبين لنا مدى ما عرفه الأندلسيون عن التشيع في خلال

---

(١) يذكر ابن حزم دعوى الرافضة رد الشمس على علي بن أبي طالب، ويقارن بينها وبين ما يذكره اليهود في ردها على يوشع ويشير إلى بيت أبي تمام:

فوالله مـــا أدرى على بدالنـــا فردت له أم كان في القوم يوشع

(٢) E. García Gómez: *Polémíca religiosa entre Ibn Hazem e Ibn Al-Nagríla*, en *Al-Andalus* IV (1936) p. 1-28

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية... ١/ ٧٢

(٤) الفصل...: ١/ ٩٩

(٥) نفس المرجع: ٤/ ١٧٩ ــ ١٨٨ وقد أفرد المستشرق Israel Friedlander هذه الناحية من كتاب ابن حزم ببحث مستقل بعنوان:

The Heterodoxies of the Shiites according to Ibn Hazm (New Haven 1909).

ولكن يجب أن نلاحظ أن ابن حزم من ألد أعداء التشيع فينبغي أن نتلقى كلامه في كثير من الحذر

قرن من الزمان: فكلام ابن حزم أدق وأضبط، وأكثر استقامة مع الواقع التاريخي، وأشد اهتماماً بالنواحي العَقَدِية ووجوه الخلاف بين الشيعة والسنة، بينما كلام ابن عبد ربه تشيع فيه الروح الأدبية والاهتمام بالمختارات والنوادر، وابن حزم يتكلم عن طوائف الشيعة معدداً إياها بكثير من التفصيل، كما أنه يتعرض للتشيع الأندلسي وممثليه ومن تأثر به قليلاً أو كثيراً، وهذا ما يخلو منه كتاب ابن عبد ربه تماماً. كذلك تعرض ابن حزم لبيان الشيعة الباطنية (الإسماعيلية) وهم الذين كانوا يحكمون حينئذ في مصر وشمال إفريقية، وأورد بعض آرائهم مع تعليقه ونقده، كما نراه في موضع آخر من بعض كتبه يفصل الكلام عن نسب هؤلاء الإسماعيلية ويبدى رأيه في مدى صحة هذا النسب[١]، وكل هذا يدل على أن كثيراً من المعلومات الدقيقة وصلت إلى علم الأندلسيين عن مختلف فرق الشيعة.

ومن مظاهر التأثير الشيعي في هذه الفترة أن مدرسة ابن مسرة قد استمرت ممثلة في طائفة من المفكرين كان من أبرزهم إسماعيل بن عبد الله الرعينى[٢] الذي عاش في المرية «Almería» وكان أنصاره يعتبرونه إماماً يؤدون إليه الزكاة، ويذكر أنه كان يتنبأ بأشياء قبل وقوعها فتقع، وإلى ابن حزم يرجع الفضل في الاحتفاظ ببعض آرائه ومناقشتها، وهي آراء يبدو فيها تأثير الباطنية كما بينا، وإن لم تخل من أثر التشيع العراقي الذي قوى تياره في هذا الوقت، وذلك في مثل قوله بنكاح المتعة[٣]، وقد كان هذا المبدأ من أهم الأشياء التي تمسك بها الشيعة الاثنا عشرية في فقههم[٤]. ويبدو أن إسماعيل الرعينى كان شديد التطرف في آرائه حتى إن المسرية تبرأوا منه[٥]، وهذا

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٥٣ وما بعدها.

(٢) Asín Palacios *Ibn Masarra*… p. 122 y sigs.

(٣) الفصل...: ٤/ ٢٠٠

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام ٣/ ٢٥٥ وما بعدها.

(٥) الفصل: ٤/ ١٩٩

يدلنا على أنه كانت لهم مدرسة واسعة الانتشار حينئذ في المرية.

وممن أشار إليه ابن حزم كذلك محدث من معاصريه كان في طلبيرة Talavera يسمى محمد بن إبراهيم بن شق الليل الطيطلى (ت ٤٥٥/ ١٠٦٣)، وكان له مشاركة في كثير من العلوم، وله عناية بأصول الديانات وإظهار الكرامات[١]، وكان يدين بالرجعة على ما يبدو من مناقشة ابن حزم لبعض آرائه[٢].

مدى تشيع الحموديين

وقد كان من المنتظر أن تزدهر الثقافة الشيعية في الأندلس في ظل الدولة الحمودية حيث كانت تتمتع بحماية السلطان، وهذا يدعونا إلى النظر في تشيع الحموديين: ما مداه؟ وأيَّ الفرق كانوا يتبعون؟ الواقع أن الحموديين كانوا شيعة معتدلين إلى حد بعيد، فلم تتخذ دولتهم طابعاً دينياً قوياً، ولم يكن لهم مذهب كامل واضح المعالم، ولا فلسفة تقوم على أسس ثابتة، ولا فقه خاص يميزهم عن غيرهم، كما نجد ذلك في الدولة الفاطمية في مصر، أو البويهية في إيران، حقيقةً كانوا يدينون ببعض المبادئ العامة التي قام عليها التشيع، ولكنهم لم يأخذوا من ذلك إلا بقدر ما يحقق لهم مأرباً سياسياً: فهم يدينون كما يدين سائر الشيعة بأنه «لا تتم ديانة إلا بإمامة[٣]» وأنه يجب على كل مسلم أن يعرف إمام زمانه، وأنهم الوحيدون الجديرون بالخلافة لقرابتهم من النبي، وأن من سواهم ممن ولى الخلافة معتدٍ غاضب. ولكنا لا نراهم أخذوا بأكثر من ذلك، بل إنهم كانوا حتى في ذلك معتدلين كثيراً، ويشير ابن حزم إلى عدم

---

(١) ابن بشكوال: الصلة (قطعة منشورة ذيلا لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى) ترجمة ١٧٥٨

(٢) فصل: ٤/ ٨٠ وقد أشرنا من قبل إلى التشابه بين رأي الشيعة والفكرة اليهودية في مسألة الرجعة، ولعل ابن شق الليل أخذ بعض آرائه من اليهود الذين كانوا حينئذ منتشرين في طليطلة وطلبيرة حيث قضى معظم حياته (راجع ابن حزم: الفصل ١/ ٩٩)

(٣) ابن بسام: الذخيرة... ق ١ ــ ٢/ ١٤١ وكذلك ٤٥٨

جرأتهم أول الأمر على التسمى بالخلافة[١]، وحتى على بن حمود أولَ خلفائهم لم يستند في دعواه على قرابته من النبي بقدر ما اعتمد على حجته في أن هشاماً المؤيد الأموي عهد إليه بالطلب بدمه، وبهذا أخرج كتاباً للناس أول ولايته نسبه إلى هشام، وفيه يستغيث من سليمان بن الحكم المستعين، ويولى ابن حمود أمر الأخذ بثأره، وقد رأى أنه بهذا يكسب دعواه مظهراً من الشرعية والحق[٢]، وبهذا الكتاب مدحه الشعراء المتشعيون، يقول أبو بكر عبادة بن ماء السماء:

فكل من ادعى معك المعـــالى كذوب مثلمـــا كذب الدَّعِيُّ
أبى لك أن تهاض عُلاك عهدٌ هشاميّ وجـــدٌّ هاشـــميّ[٣]

ومن هذا يبين لنا مدى اعتدال الحموديين في تشيعهم، ويقول «بريتو فيفس» إن الخليفة الحمودى الثاني القاسم بن حمود كان يدين بمبادئ شيعية، إلا أنه لم يحاول مطلقاً أن يفرضها على أحد في دولته[٤].

وبالرغم من ذلك فقد احتفظ لنا ابن بسام برسالة طريفة بقلم أبي جعفر بن عباس وزير زهير الصقلبى في المرية، وتتضمن هذه الرسالة طائفة من التهم التي كان يُرمى بها الحموديون في عقيدتهم وشريعتهم باعتبارهم شيعة، يقول ابن عباس (والكلام عن أحد خلفاء بن حمود): «مُلحِدٌ رِجْسٌ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يؤاخى إلا كلَّ منافق كافر، يسب الصحابة والأبرار،

---

(١) ابن حزم: نقط العروس ٥٩
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ٣/ ١١٦
(٣) ابن بسام: الذخيرة القسم الأول ــ ٢/ ١٠
(٤) A. Prieto y Vives: *Los reyes de Taifas*, p. 25 وانظر كذلك الحميدى: جذوة المقتبس ص ٢٢ وعبد الواحد المراكشى: المعجب ص ٥٠ وقد ذهب «بيريس» (*La Poesie andalouse*… p. 96) إلى أن الحموديين قاموا فعلا بهذه المحاولة، واستند إلى ما ذكره ابن خاقان في المطمح من اضطهادهم لابن شهيد، ولكنا لا نرى في ذلك دليلا كافياً على أن الحموديين أرادوا فرض تشيعهم على الأندلسيين بشكل عام، بل إن ابن شهيد نفسه ــ كما سنرى ــ لحق بيحيى بن علي الحمودي ودافع عن إمامة العلويين.

ويُكَذِّبُ بالجنة والنار، ولا يرجو حساباً ولا يحذر عقاباً، ادعى خلافة الله فهي منه تضج... يأخذ الرشوة على بيت الله الحرام، ويستخف بشرائع الإسلام... إلى أن يقول: بئس الشيعة وقودُ جهنم وحطبُها، وعليهم يزداد حنقها وغضبُها»[١] وواضح أنه لا يمكن الثقة في صحة هذه التهم لصدورها عن عدو متحامل، ولست أظن ما يذكره من سب الحموديين للصحابة صحيحاً، وإن كان شيئاً مألوفاً عند كثير من فرق الشيعة المتطرفة.

وهكذا نستطيع أن نقول بوجه عام إن تشيع الحموديين كان تشيعاً باهتاً لا روح فيه، وهو تقليد للمشرق لا تجد فيه أثراً للشخصية الأندلسية، ثم هو سطحي لا عمق فيه، مقتصر على مظاهر كثيرٌ منها كاذب متكلف، يمثلها لنا ما يرويه المؤرخون عن إدريس بني يحيى الحمودى الخليفة العلوي في مالقة، إذ اتخذ له حجاباً ينشده الشعراء من خلفه، وذلك تشبهاً بالخلفاء الهاشميين من بني العباس[٢].

أسباب ضعف التشيع في هذه الفترة

ويمكن أن نرد هذه الظاهرة إلى أسباب منها:

١ ــ أن الدولة الحمودية كانت منذ نشأتها محاطة بجو من الكراهية الشديدة من جانب الأندلسيين الذين كان المذهب السني قد تأصل فيهم منذ الإمارة الأموية، فكان على الحموديين أن يجاروا هذا الجو، فلم يستطيعوا إلا أن يكونوا معتدلين مسايرين للمذهب السني وهكذا لا نراهم يغيرون شيئاً من النظم الإدارية والقضائية التي كانت موجودة في أيام بني أمية.

٢ ــ وكان حكم الحموديين قصيراً تتخلله الثورات والحروب الأهلية، ولم يدع هذا لهم مجالا للاستقرار، وتكوين حكومة قوية تستطيع أن تفرض آراءها ومعتقداتها.

---

(١) ابن بسام: نفس المرجع القسم الأول ــ ٢/ ١٦٤، ١٦٥

(٢) المقرى: نفح الطيب ١/ ٤١٠

٣ ــ وهم أخيراً لم يحكموا كل الأندلس، بل لم تتجاوز دعوتهم قرطبة والجزيرة الخضراء وغرناطة ومالقة تقريباً، وكانت بقية إمارات الأندلس: إما تدين بخلافة دَعِيٍّ هشام الذي نصبه ابن عباد، أو مستقلة تماماً، أو محالفة للدول النصرانية، وهكذا لم يمكنهم نشر دعوتهم نشراً كافياً لتثبيت دعائمها.

آثار بعض العقائد الشيعية في التفكير الأندلسي

وعلى رغم ذلك، فقد كان للدعوة العلوية في أول ظهورها أثر على التفكير الديني والسياسي في الأندلس، وذلك عند ما بدأت ظواهر الانحلال في جسم الدولة الأموية، وقد أعان هذا على خلق جو من التنجيم والأراجيف، وانتشار كتب الحدثان وتأويل الرؤى انتشاراً لم نعهده من قبل، وحتى الخليفة الأموي نفسه هشام المؤيد كان يخامر نفسه قائم علوي بسبتة Ceuta يملك الأندلس أول اسمه عين، فما زال يرتقبه حتى ولى على بن حمود سبتة، فكتب إليه يوليه عهده(١)، ولعل وسطاء الحموديين استغلوا غفلة هشام وضعف عقله(٢) فأقنعوه بهذه الفكرة. وقد شاعت في هذا الجو الأساليب والألقاب التي اتخذها الشيعة دائماً، وقد استغلها كذلك الحزب الأموي كما استغلها الحزب الشيعي سواء بسواء، ونظرة إلى الانقلاب العسكري الذي قام به سنة ٤٠١/ ١٠١٠ محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي ضد عبد الرحمن بن المنصور (شنجول) تثبت ما نقول، ولندع ابن حيان يروِ لنا مبادئ ثورته: «وطفق دعاته يرجفون بوثوب قائم من آل مروان، ولا يسمونه، ويشيعون الأحاديث عن نصره، ويتكهنون بهلك عبد الرحمن»(٣)، بل إن محمد بن هشام هذا على رغم كونه زعيم الحزب الأموي والعدو اللدود للبربر لم ير بأساً من أن يتخذ لقب «المهدى»،

---

(١) ابن بسام: ذخيرة ق ١ ــ ١/ ٢٩

(٢) راجع ترجمة هشام المؤيد في المغرب لابن سعيد ١٨٨ ــ ١٩١ وقد بالغ الحجارى كثيراً في وصف هذا الجانب من هشام.

(٣) ابن عذارى: البيان ٣/ ٥٣

وقد كان هذا اللقب الشيعي المحض مما أثار عليه أهل الأندلس السنيين، ويقول ابن عذارى في ذلك: «وذلك اسم لم يتلبس به أموي قط، فكان أول مناكيره»[١]. ولما فشلت الانقلابات المتوالية التي حاول الأمويون بها أن يصلوا إلى الحكم، وبدا الأمر يكاد يستقر للدعوة الحمودية العلوية، رأى المعتضد أن يقدم رجلا للخلافة زعم أنه هشام المؤيد، بايع له، ودخل الناس في طاعته، وكان بدء إظهار هذا الرجل سنة ٤٢٧/ ١٠٣٥[٢]، وحينئذ راح شيعة المروانية ينشرون الإشاعات عن عودة الدولة الأموية، وأن هشاماً إنما رحل إلى مكة لتأدية المناسك، ثم يعود، فيعيد إلى الأرض العدل وينشر السلام، وقد حمل المؤرخ ابن حيان على هذه الخرافة حملة شديدة، ورأى أن هؤلاء دانوا بما تدين به الشيعة من الرجعة[٣]، ويقول في ذلك أيضاً الوزير أبو جعفر ابن عباس من رسالة كتبها عن زهير الصقلبى صاحب المرية إلى أهل قرطبة: «واستعار (يعنى ابن عباد) اسم الشهيد هشام المؤيد لغير أهله... واعترض على منكريه بكهانة شِقٍّ وسطيح، واحتج بكتب الجفر، ودان بالتناسخ»[٤]. ونحن نعلم أن الجفر من الأشياء التي اختص بها الشيعة وهو عندهم وعاء من جلد ثور صغير مكتوب فيه علم ما سيقع وهو مروى عن جعفر الصادق[٥]، والتناسخ من العقائد التي دان بها الكيسانية من الشيعة[٦]. وهكذا نرى الحزب الأموي يستغل وسائل الشيعة في الدعاية، ويأخذ عنهم بعض طرق تفكيرهم، على أن ذلك كان في الوقت الذي قَوِىَ خطر الدعوة العلوية فيه، فلما رأى

(١) نفس المرجع: ٣/ ٦١
(٢) » » : ٣/ ١٩٠
(٣) » » : ٣/ ١٩٨
(٤) ابن بسام: ذخيرة ق ١ ــ ٢/ ١٦١
(٥) راجع أحمد أمين: ضحى الإسلام ٣/ ٢٤٣ وانظر كذلك حاجى خليفة: كشف الظنون ١/ ٥٩١
(٦) ابن حزم: الفصل ٤/ ١٨٢

المعتضد ضعف هذه الدعوة واضمحلالها أعلن موت هشام الدَّعِيِّ إذ رأى أنه لم يعد بحاجة إلى الدعوة له وذلك في سنة ٤٥٠/ ١٠٥٨.

الأدب الشيعي في ظل الحموديين

كان التشيع في المشرق من أكبر العوامل التي غذت الأدب العربي وأمدته بألوان جديدة، وكما كان الحزب الشيعي هو أول حزب إسلامي ديني سياسي، فكذلك كان أدب الشيعة أول أدب سياسي حاول شعراؤهم أن يحتجوا فيه على خصومهم مدافعين عن نظريتهم في الإمامة. وقد كان أدب الشيعة يمتاز كذلك بصدق العاطفة وقوة الشعور الديني، ولهذا فقد كانت مدائح شعرائهم تختلف عن مدائح غيرهم لما فيها من الحرارة والإخلاص، وهو ما يفتقر إليه شعر المديح عموماً في الشعر العربي[١].

أما في الأندلس، فقد وافق قيام الدعوة العلوية بها هذه الفترة التي أشرنا إلى بعض ما امتازت به من مظاهر الازدهار الأدبي، ومحاولة كل أمير من أمراء تلك «الطوائف» أن يجمع حوله أكبر عدد ممكن من الأدباء، وعلى الرغم من أن على بن حمود أول خليفة علوي كان يفهم العربية بكثير من الصعوبة، إلا أنه كان «يصغى إلى الأمداح ويثيب عليها»[٢]، ولعله فطن إلى مدى خطر الشعر في توجيه السياسية، وقد كان من تبعه من الحموديين مثله أو أكثر منه تشجيعاً للأدب وإغداقاً على الشعراء، وهكذا نجد في بلاطهم عدداً كبيراً من الأدباء احتفظت لنا المراجع بأسماء الكثيرين منهم.

ابن دراج القسطلى

ويعد ابن دَرَّاج القَسْطَلِّيُّ (ت ٤٢١/ ١٠٣٠) أفضل الشعراء الذين اتصلوا بالحموديين، ولم يبق لنا من شعره الشيعي إلا قصيدةٌ هاشميةٌ مدح بها على بن حمود،

---

(١) راجع في أدب الشيعة: أحمد أمين: ضحى الإسلام ٣/ ٣٠٠ وما بعدها.

(٢) المقرى: نفح الطيب ٢/ ٢٨

واحتفظ لنا ابن بسام بأكثرها[١]، مفضلا إياها على هاشميات كُثَيِّر عزة والكُمَيْتِ بن زيد والسَّيِّد الحميرى ودِعْبل، وفي هذه القصيدة يحتج ابن دراج لإمامة الحموديين ويقول إنها ثابتة بنص القرآن، وبدليل العقل، وبحكم حقهم في ميراث النبي:

فأنتــم هــداة حيـــاة ومــوت وأنتـــم أئمــة فعــل وقيــلِ
وســـادات من حل جنات عــدن جميـــع شـــبابهــم والكهــول
وأنتــم خـــلائف دنيـــا وديـــنٍ بحكم الكتـــاب وحكم العقــول

وابن دراج أول من ذكر مناقب أهل البيت في أسلوب حزين مؤثر، كان نواة للقصائد الأندلسية التي تناولت مراثى أهل البيت من بعد:

ووالـــدكم خـــاتــم الأنبيــــاء لكم منـــه مجــدُ حَفِـــيٍّ كفيــل
تلـــــذ بحملكـــم عــــاتقـــاه عــلى حمــله كلَّ عِبْءٍ ثقيــل
ورحبٌ على ضمــكم صـــدره إذا ضـــاق صدر أب عن سليل
ويطرقه الـــوحى وهنـــاً وأنتم ضجيعـــاه بيـــن يـــدي جبرئيل

والحقيقة أن هذه القصيدة تعتبر من خير ما أنتجه الأدب الشيعي، وقد بلغت في وقتها من الانتشار حداً بعيداً، واهتم بها رواة الشعر وأفردوها بالدراسة والحفظ[٢].

مدى إخلاص ابن دراج في تشيعه

ولكن، هل كان ابن دراج مخلصاً حقاً في هذا التشيع؟ قد عرض لهذه المسألة المستشرق الفرنسي الأستاذ «بلاشير» في بحثه الذي أفرده عن ابن دراج، فقال إنه من المبالغة أن نظن به هذا الإخلاص، وإن الدليل على ذلك تأييده للحزب الأموي الذي تزعمه خيران العامرى، والذي ترك الدعوة للحموديين سنة

---

(١) الذخيرة: القسم الأول ١/ ٧٠ ــ ٧٣

(٢) ابن الأبار: تكملة ت ١٦٩٥

٤٠٨/ ١٠١٧، ودعا للخليفة الأموي عبد الرحمن المرتضى[١]. وهذا صحيح، فإن هذا الشاعر الذي دافع عن حق العلويين في الإمامة لا نلبث أن نراه بمثل هذه الحماسة يدافع عن حق الأمويين فيها، ومن قوله في سليمان بن الحكم المستعين الأموي:

وجَدَّد للإسلام سور خلافة ... عليها من الرحمن نور وبرهانُ
قريب النبي المصطفى وابن عمه ... ووارث ما شادت قريش وعدنان
وما ساقت الشورى وأوجبه التقى ... وأورث ذو النورين عَمُّك عثمان
وما حكمت فيه السيوف وحازه ... إليك أبو الأملاك جدك مروان

على أنه ينبغي ألا نندهش لهذا التقلب السريع، فقد كان ابن دراج من هؤلاء الشعراء التعسين الذين جنت عليهم «الفتنة» القرطبية[٢]: فراحوا يستجدون بشعرهم كل ثائر، دائرين مع الريح حيث دارت، باكين مع ذلك مجد الأندلس الذي عصف به سقوط الخلافة الأموية، وهكذا كان شعر القسطلى الهاشمي قليل النصيب من الصدق والإخلاص، على رغم إحكام صنعته واهتمامه الفائق بالأسلوب[٣].

ابـــن شـــهيد

وكذلك كان شاعر آخر ليس أقل من ابن دارج شهرة، هو أبو عامر بن شُهَيْد (ت ٤٢٦/ ١٠٣٤). وهو يشترك مع سابقه في أنه من الشعراء الذين وصفوا «الفتنة»، وقد رثى قرطبة بقصائد مؤثرة عرَّض في أثنائها بالبربر وبدعوتهم الشيعية، وربما كان من أجل ذلك الاضطهاد الذي لحقه من جانب الحموديين

(١) Blachère: *La vie et l'œuvre du poète-épistolier andalou Ibn Darrag al Kastalli Hesperis,* t. XVI 1933 (p. 99-121) p. 111

(٢) García Gómez: *Algunas precisiones sobre la ruina de Córdoba Omeya, Al-Andalus,* vol. XII 1947 p. 273.

(٣) Blachère: op. cit. 118

فترة من الزمن[١]، ولكنه اضطر بحكم السياسة أن يمدح العلويين ولعله فعل بعد أن يئس من عودة الدولة الأموية، ولهذا فنحن نراه هارباً من قرطبة لاحقاً بيحيى المعتلى بن علي بن حمود (ت ٤٢١/ ١٠٣٠) في مالقة، وقد صور في شعره هذا التحول إلى الحزب الشيعي منددا ببني أمية:

لئن أَخْرَجَتْنِي عنكمُ شر عصبة ففي الأرض إخوانٌ عَلَيَّ أكارمُ
وإن هشــمت حقى أمية عنــدها فهاتا على ظهر المحجة هاشم[٢]

ويبدو أن الحموديين في مالقة أحسنوا استقباله، وحاولوا أن يجعلوه من ألسنتهم، حتى إنه ليعترف بفضلهم عليه وإيوائهم له وذلك في بعض رسائله[٣]، ولكن أبا عامر لم يكن مع ذلك مخلصاً للدعوة العلوية، ثم إنه اعتزل السياسة أخيراً وكان له في إكبابه على لذاته ما يشغله عن هذا التناحر السياسي الديني.

عبــادة من مــاء السماء

على أنه كان من بين الشعراء الذين اتصلوا بالحموديين من أخلص لهم وكاد يقتصر عليهم، ومن أمثلة هؤلاء أبو بكر عبادة بن ماء السماء (توفى بعد ٤٢١/ ١٠٣٠)، وقد أشار المؤرخون إلى أنه كان يتشيع، وافتخر هو بذلك في شعره فقال من قصيدة يمدح بها يحيى المعتلى الحمودى:

فهــا أنــذا يابــن النــبوة نــافث من القول أريا غير ما ينفث الصِّلُّ
وعنــدى صريح من ولائك معرق تَشَــيُّعُهُ محــض وبيعتــه بتــلُ
ووالى أَبِي قَيْسٌ أبــاك على العلى فخيم في قلب ابن هند لــه غــلُّ[٤]

---

(١) H. Pérès : op. cit. 95-97

(٢) ابن بسام: ذخيرة القسم الأول ــ ١/ ٢٧٦

(٣) نفس المرجع: ١/ ١٨٢ فهو يقول في معرض الكلام عن بعض خصومه من الأدباء «ولو أنه منتسب على آل هاشم، إلى عصابة أقلنى كرمهم وأظلتنى نعمهم... الخ»

(٤) نفس المرجع: القسم الأول ٢/ ٩

وهو يشير في البيت الأخير إلى عراقته في التشيع، إذ أن جده قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى كان من أكبر شيعة علي بن أبي طالب، وهو الذي ولى له مصر، وشعر معاوية بخطره حتى استطاع التخلص منه بأن بعث إليه من سمه[١]، وقد أشرنا إلى أن أحد سلالة سعد بن عبادة قام من قبلُ بالثورة في وجه عبد الرحمن الداخل منذ كانت الإمارة الأموية في طور التكوين. وقد نقل ابن بسام بعض شعر عبادة، منه قصيدة قالها في رثاء علي بن حمود ومدح أخيه القاسم حين ولى الخلافة بعده، ويظهر في هذه القصيدة ما هو مألوف في مدح الشيعة من إفراط ومبالغة وإذابة لشخصية الشاعر في «الإمام»، حتى إن نفوس أشياعه وأموالهم إنما هي من بعض فضله:

وحكمة خضعت هـــام الملوك بها عــزاً فلا حُــرَّ موجــود بواديه
مؤيــد جــاءت الدنيــا إلى يــده عفــواً ولبته من قــرب أمـــانيه
جلت أيــاديه حتـــى إن أنفســنا وما ملكنـــاه جــزء من أياديه[٢]

ابن الحنـــاط

واختص بالحموديين أيضاً أبو عبد الله محمد بن سليمان القرطبي المعروف بابن الْحَنَّاط الكفيف (ت ٤٣٧/ ١٠٤٥)، وكان قد نشأ في قرطبة نشأة أعانته على أن بلغ الغاية في العلوم، ولكن غلب عليه علم المنطق حتى اتهم في دينه، واضطر إلى الالتجاء إلى الجزيرة الخضراء، فعاش هناك في ظل محمد المهدى بن القاسم بن حمود (تولى من ٤٢٨/ ١٠٣٦ إلى ٤٤٠/ ١٠٤٨)، وله قصيدة يصف فيها خروجه من قرطبة ورحلته إلى الجزيرة يقول في أولها:

تفرغت عن شغل العداوة والظعن وصرت إلى در الإقامة والأمنِ
وما عن قلِيً فارقت تربة أرضكم ولكنني أشفقت فيها من الـــدفن

(١) ابن حزم: جمهرة الأنساب ٣٤٦
(٢) ابن بسام: الذخيرة القسم الأول ــ ٢/ ٦

وتظهر في شعره بعض التعابير الشيعية مثل «الوصى»:

فبــوأت رحلى ظــل أروع ماجــد يقول بلا خلف ويعطى بلا منِّ
إمام «وصى» المصطفى وابن عمه أبوه فتم المجــد بيــن أب وابنِ

ولابن الحناط قصيدة في مدح القاسم بن حمود، يسجل فيها هزيمة عبد الرحمن المرتضى في سنة ٤٠٩/ ١٠١٨ على أسوار غرناطة وكان القاسم قد احتفل بذلك اليوم في قرطبة، وأنشده ابن الحناط يومئذ[١]:

لــك الله خيــرانٌ مضى لســبيله وأصبح أمر الله في ابــن رسولهِ
وفُرِّقَ جمعُ الكفر واجتمع الورى على ابــن حبيب الله بعــد خليله

وتظهر في هذه القصيدة العصبية البربرية التي كانت سند الدعوة العلوية، فيقول مُصوِّراً هزيمة خيران:

ولما دعا الشيطان في الخيل حزبه وأقبل حــزب الله فــوق خيــوله
كتــائبُ مــن صنِهاجةٍ وزنــاتةٍ تضايق في عرض الفضاء وطوله
تقــدم خيــران إليهــا بــزعمــه ليدرك ما قــد فــاته من ذحــوله
فأحجم تحت النقع والخيــل تَدَّعى كمــا ازدلف الليث الهــزبر لغيله

ابن مقــانــا الأشبونى

وأهم شعراء الحموديين بعد ذلك أبو زيد إدريس بن مقانا الأشبوني، وهو مشهور بقصيدته النونية في مدح إدريس بن يحيى العالى (تولى من ٤٣٤/ ١٠٤٢ إلى ٤٣٨/ ١٠٤٦)، وفي هذه القصيدة نرى التشيع يبلغ غايته من التطرف والمبالغة، فهو يهتم بإبراز حق العلويين المقدس، وشعره واضح التأثر بشعر ابن هاني وذلك في ناحيتين: أما الأولى فهي اهتمامه بالوقع الموسيقي للألفاظ، وقد أعان ابنَ مقانا على التوفيق في هذه الناحية البحر الذي نظم فيه قصيدته والقافية التي

---

(١) نفس المرجع: القسم الأول ــ ١/ ٣٩٦ وقد نسب المقرى هذه القصيدة خطئاً إلى أبي بكر عبادة بن ماء السماء راجع المقرى: نفح الطيب ٢/ ٣١

تنتهي بها أبياتها، وأما الثانية فهي ما أسبغه على ممدوحه من صفات جعلته شبه إله: بيده العسر واليسر، بل هو يختلف عن سائر البشر: أصله غير أصلهم وطينته غير طينتهم[١]:

يا بني أحمــد يا خيــر الــورى   لأبيكــم كــان وفــد المســلمينْ
نــزل الــوحى عليــه فــاحتبى   في الدجى فوقهم الــروح الأمين
خلقــوا من مــاء عــدل وتقــى   وجميع النــاس مــن ماء وطين
انظــرونــا نقتبس مــن نوركم   إنه مــن نــور رب العــالمين[٢]

وقد مدح الحموديين غير هؤلاء من الشعراء؛ منهم أبو عبد الله محمد بن السَرَّاج، وإدريس بن اليمان اليابسى، وغانم بن الوليد، ممن لا يتسع لتفصيلهم المجال، ولكن النزعة الشيعية في شعرهم أقل وضوحاً وقوة ممن بينَّا.

قيمة الشعر الشيعي الأندلسي

لم يكن هذا الشعر الشيعي من الناحية الفنية إلا صورة صحيحة صادقة للتشيع الأندلسي الذي أسلفنا الكلام عنه، وقلنا إنه تشيع باهت تغلب عليه السطحية والتكلف، وتشحب فيه الشخصية الأندلسية حتى لا تكاد تبين، وكثير من مدائح شعراء الحموديين لهم لا تكاد تفترق عن مثيلاتها في غيرهم من ملوك الطوائف، إذ أن هؤلاء الشعراء لم يروا فيهم ما يميزهم عن غيرهم، بل إن كثيراً من الأمراء الحموديين أنفسهم لم يروا لأنفسهم الحق الشرعي الواضح في الخلافة، ولهذا فإنهم لم يحاولوا أن يفرضوا التشيع على الشعوب التي خضعت لهم كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

---

(١) هذا وقد لاحظ ابن بسام أن معظم شعراء عصره يميلون إلى طريقة ابن هاني ويقلدونه الذخيرة القسم لاثاني ورقة ١٥٣

(٢) المقرى: نفح الطيب ١/ ٤١٠

وقد ترتب على ذلك أننا نبحث عبثاً عن شاعر حمودى يمثل شعره فكرة كاملة متماسكة كما كان شعر «ابن هاني» بالنسبة للفاطميين.

والشيء الذي نلمس فيه بعض الحرارة والقوة هو الشعر الذي يتناول أهل البيت بالرثاء، وإنما أتى هذا من طبيعة الموضوع نفسه، وربما أعان عليه دخول الكثير من دواوين شعراء الشيعة المشارقة مثل الشريف الرضى ومهيار الديلمى إلى الأندلس في ذلك الوقت، وقد أشرنا إلى أن في شعر ابن دراج القسطلى مبادئ لهذا الموضوع، ولعل أولَ من اختصه بالنظم في آخر أيام ملوك الطوائف الكاتب أبو عبد الله ابن أبي الخصال الذي نظم قصيدتين في رثاء الحسين بن علي[١]، وسنرى كيف تطور هذا الغرض فيما بعد حتى صار أيام الموحدين موضوعاً تفرد له الكتب والدواوين.

محمود مكي

---

(١) ابن خير: فهرسة ٤٢١

مراجع البحث

أصـــول:

ابن الأبار: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى)

التكملة لكتاب الصلة (المجلدان الخامس والسادس من المكتبة الأندلسية نشر الأستاذ فرانسيسكو كوديرا ــ مدريد ١٨٨٧ ــ ١٨٨٩) والذيل الذي نشره على هذه الطبعة المستشرقان جونثالث بلنثيه Gonzalez Palencia وألاركون Maximiliano Alarcón ضمن مجموعة من الدراسات والنصوص العربية (Miscelánea de studios y textos árabes) مدريد ١٩١٥. الحلة السيراء: (نظراً لتعذر الرجوع إلى نشرة دوزى الجزئية لهذا الكتاب اضطررت إلى الاستعانة بالنسخة المخطوطة الموجودة بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم ٧٨٩٧ ــ رقم XIII في كتالوج المكتبة الوطنية ــ ط. مدريد ١٨٨٩)

ابن أبي أصيبعة: (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم)

عيون الأنباء في طبقات الأطباء (جزآن ط. القاهرة ١٢٩٩ ــ ١٣٠٠)

ابن الأثير: (علي بن أحمد بن أبي الكرم)

الكامل في التاريخ (٩ أجزاء ط. القاهرة ١٣٤٨ ــ ١٣٥٣)

ابن بسام: (أبو الحسن علي بن بسام الشنترينى)

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (القسم الأول في جزئين والجزء الأول من القسم الرابع نشر لجنة من كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥)

حاجى خليفة: (مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي)

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (ط. الآستانة ١٩٤١)

ابن حزم: (أبو محمد علي بن سعيد بن حزم)

جمهرة أنساب العرب (نشر ليفى بروفنسال ــ القاهرة ١٩٤٨)

الفصل في الملل والأهواء والنحل (ط. القاهرة ١٣١٧)

نقط العروس في تواريخ الخلفاء (نشر الدكتور شوقي ضيف في مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ١٩٥١)

الحميدي: (أبو عبد الله محمد بن فتوح)

جذوة المقتبس (نشر الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ــ القاهرة ١٩٥٢)

ابن حوقل: (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي)

صورة الأرض (ط. ليدن ١٩٣٨)

ابن حيان: (أبو مروان حيان بن خلف القرطبي)
المقتبس في تاريخ الأندلس (نشر الاب ملتشور أنطونيا Melchor Antuña قطعة منه تتعلق بتاريخ الأمير عبد الله بن محمد ــ باريس ١٩٣٧)
أخبار مجموعة:
(نشر لا فونت ألكنترا Lafuente Alcántara ــ مدريد ١٨٦٧)
ابن خاقان: (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان)
قلائد العقيان (القاهرة ١٢٨٤)
مطمح الأنفس ومسرح التأنس (القاهرة ١٣٣٥)
الخشنى: (أبو عبد الله محمد بن حارث القروى)
كتاب القضاة بقرطبة (نشر خوليان ربيرا Julián Ribera ــ مدريد ١٩١٤)
ابن الخطيب: (لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلمانى)
أعمال الاعلام (نشر ليفي بروفنسال ــ الرباط ١٩٣٤)
ابن خلكان: (شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم)
وفيات الأعيان (جزآن ــ القاهرة ١٢٩٩)
ابن خير الأشبيلي: (أبو بكر محمد بن خير)
الفهرسة (المجلدان التاسع والعاشر من المكتبة الأندلسية نشر فرانسكو كوديرا وخوليان ربيرا ــ سرقسطة ١٨٩٣)
رسائل إخوان الصفا:
(في ٤ أجزاء ــ القاهرة ١٩٢٨)
ابن سعيد المغربي: (علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد)
المغرب في حلى المغرب (نشر الدكتور شوقي ضيف ــ القاهرة ١٩٥٢)
السلاوى: (أحمد بن خالد الناصري)
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٤ أجزاء ــ القاهرة ١٣١٠ ــ ١٣١٢)
الشهرستاني: (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم)
الملل والنحل (على هامش كتاب الفصل لابن حزم)
ساعد الطيطلى: (أبو القاسم صاعد بن أحمد)
طبقات الأمم (ط. القاهرة ــ بدون تاريخ)
ابن عبد ربه: (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبى)
العقد الفريد (ط. القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨)

عبد الله بن بلقين بن زيرى:

مذكراته المسماة «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيرى في غرناطة» نشر ليفي بروفنسال في مجلة *Al-Andalus* (١٩٣٥، ١٩٣٦) تحت عنوان:

Les «mémoires» de 'Abd Allah, dernier roi ziride de Grenade

عبد الواحد المراكشى:

المعجب في تلخيص أخبار المغرب (نشر الأستاذ محمد سعيد العريان ــ القاهرة ١٩٤٩)

ابن عذارى المراكشى:

البيان المغرب في أخبار المغرب (الجزآن الأول والثاني ط. بيروت ١٩٤٧ ــ ١٩٥٠ والجزء الثالث نشر ليفي بروفنسال ــ باريس ١٩٣٠)

ابن فرحون: (برهان الدين ابرهيم بن علي بن محمد)

الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (القاهرة ١٣٥١)

ابن الفرضى: (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف)

تاريخ علماء الأندلس (المجلدان السابع والثامن من المكتبة الأندلسية نشر فرانسسكو كوديرا ــ مدريد ١٨٩٠)

ابن القوطية القرطبى: (أبو بكر محمد بن عبد العزيز)

تاريخ افتتاح الأندلس (نشر خوليان ربيرا ــ مدريد ١٨٦٨)

المالكى: (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله)

رياض النفوس (الجزء الأول نشر الدكتور حسين مؤنس ــ القاهرة ١٩٥١)

المقدسى: (شمس الدين أبو عبد الله محمد)

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ط. دى خويه ــ ليدن ١٩٠٦)

المقرى: (أحمد بن محمد المقرى التلمسانى)

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (عشرة أجزء نشر الشيخ محيى الدين عبد الحميد ــ القاهرة ١٩٤٩)

النباهى: (أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامى المالقى)

تاريخ قضاة الأندلس المسمى بـ «كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» (نشر ليفى بروفنسال ــ القاهرة ١٩٤٨)

ياقوت: (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي)

معجم البلدان (ط. القاهرة في ٨ أجزاء ١٩٠٦)

أبحاث حديثة:

أحمد أمين:

ضحى الإسلام (الجزء الثالث ــ القاهرة ١٩٤١)

محمد كامل حسين «دكتور»:

في أدب مصر الفاطمية (القاهرة ١٩٥٠)

ديوان المؤيد داعى الدعاة (القاهرة ١٩٤٩)

جبرائيل جبور:

ابن عبد ربه والعقد (بحث في مجلة المشرق الصادرة في بيروت في سنتي ١٩٣٢، ١٩٣٣)

إميليو غرسيه غومس:

الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه (ترجمة الدكتور حسين مؤنس ــ القاهرة ١٩٥٢)

آدم متز:

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة في جزئين ــ القاهرة ١٩٤٧)

فان فلوتن:

السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات (ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن والشيخ زكي إبراهيم ــ القاهرة ١٩٣٤)

أبحاث أوروبية:

R. Dozy*: Histoire des Musulmans d'Espagne*, (3º éd. Lévi-Provençal, Leyden 1932).

E. Lévi-Provençal: *Histoire de l'Espagne Musulmane* (Paris, Leyden 1950). Traducción española de E. García Gómes (en *Historia de España*, dirigida por R. Menéndez Pidal) Madrid 1950.

L'Espagne Musulmane au xº siècle. Institutions et vie sociale (Paris 11932).

E. Lévi-Provençal, E. García Gómez: *Una crónica anónima de 'Abd al-Rahman al-Nasir* (Madrid-Granada 1950).

E. García Gómez: *Poemas arábigo-andaluces* (Madrid 1943).

M. Asín Palacios: *Ibn Masarra y su escuela* (en obras escogidas t. I, Madrid 1946).

Abenházam de Córdoba su Historia Crítica de las ideas religiosas (Madrid 1927-32).

Henri Pérès: *La Poésie andalouse en arabe classique au XIº siècle* (Paris 1937).

A. Prieto y Vives: *Los reyes de Tai*fas (Madrid 1926).

A. R. Nykl: *Hispano-arabic Poetry* (Baltimore 1946).

José Mª. Millás Vallicrosa: *La Poesía sagrada hebraico-española* (Madrid-Barcelona 1943).